دراسات فى

التصوف والأخلاق

أ.د./ أحمد عبدالرحيم السايح

الأستاذ بجامعة الأزهر الشريف

يوزع مجاناً

تبدأ دعوات الإصلاح بروح صوفية تدعو إلى تزكية

النفس وتطهيرها والتصدي للفساد والانحراف

وحينما تختلط بالدنيا وتبدأ الغنائم

لا يلبث القائمون عليها في استغلال الدعوة

لتبرير استئثارهم بالسلطة ونفيهم للآخر

وشعارهم هو من ليس معنا فهو علينا

وبالتالي فهو كافر ومشرك

ومستباح المال والعرض والدم



مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين الذي هدى السالكين طريق الحق إلى اليقين وفتح أمام عباده أبواب الرحمة، ووهب الإنسان ما به أشرقت على النفس أسرار الموجودات، وتجلت معرفة صانع الوجود ومن إليه ينتهي كل موجود.

والصلاة والسلام على محمد رسول الله ﷺ المبعوث رحمة للعالمين وهداية للناس أجمعين، قدوة أهل الحق والباحثين عن اليقين..

أما بعد،،

فإن من شأن النابهين، والباحثين عن العلوم والمعرفة والدارسين للتراث الإسلامي، وما خلفه العلماء المسلمون وأئمة السلوك أن يقفوا على هذه الأعمال التي عمرت بها قلوب وجاهدت في سبيلها نفوس.

ومن المؤكد لدى العلماء: أن السلوك الصوفي تجربة ذاتية تخص السالك الذي يعاني التجربة ويكابدها.. كذلك كان السلوك الصوفي: تذوق.

ويذكر العلماء المنصفون أنه من غير الصواب أن يخضع الإنسان التجارب الذاتية والتذوق لحكم العقل ومقولاته. ولما كان التصوف الإسلامي له ولعلمائه دور بارز في انتشار الإسلام في قارة إفريقيا وغيرها كان علينا أن نقرأ التصوف ونتعرف على أسسه وقواعده وأصوله، ومقاماته.. لنتبين الطريق. وأي موضوع يتناوله العلماء بالبحث والدرس يصبح علماً من العلوم يتتبعه الباحثون والدارسون.. وبما أننا نتعرف على التصوف الإسلامي.. فإننا نتعرف على علم التصوف. والدارسون يرغبون دائما أن يقفوا على مختلف العلوم والفنون.. وإنه لمن الأولى لنا أن نقرأ التصوف الإسلامي، وندرس ما فيه من قضايا تتصل بالمجاهدة، والقلب والمعرفة، والسيرة والسلوك إلى الله رب العالمين..

ومن شأننا أن نعطي موضوعات "علم التصوف" ما تستحق من الاهتمام والتناول. فالمقامات والأحوال منازل تهذيبية ووقفات تربوية تأخذ بالسالك إلى المدارج، التي ترقي بالإنسان. والعلماء يذكرون أن الإمام ابن القيم حينما تناول بالشرح "منازل السائرين" للهروي سمى شرحه: "مدارج السالكين" ومدارج السالكين مدارج الارتقاء الصوفي، والتطبيق العملي لمن أراد أن يسلك الطريق السليم.

وإن أمتنا وهي تتطلع إلى مجد الأسلاف، من شأن أبنائها أن يكونوا على معرفة بعلمائها الأفذاذ، الذين نشروا الإسلام في الأرض وملأوا القلوب بحب الله، وعمروا نفوسهم، وصدورهم بذكر الله. إن قضايا التصوف والأخلاق، تشد الانتباه، وتثير الاهتمام، فما أحرانا أن نكون من المنتبهين، وما أجدرنا أن نكون من المهتمين.

تمهيد

إن من الحقائق التي لا مريه فيها: أن الإنسان لا يتأتى له أن يلج بلب الله، أو يسير في الطريق إليه... إلا بالعبودية الخالصة لله، وحده لا شريك له..

فإذا ما تمخضت العبودية لله سبحانه وأصبح الإنسان من عباد الله المخلصين وحقق بذلك (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فإن الله سبحانه لا يجعل للشيطان عليه من سبيل [1] .

وإذا ما حقق الإنسان العبودية، فإن الله يتولاه بالإمداد بالمعرفة إنه سبحانه وتعالى، يقول عن موسى وفتاه (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) [2] ..

إنه حقق العبودية، فكان ثمرة ذلك أن يغمره الله بالرحمة وأن يفيض عليه العلم، وليست المعرفة وحدها هي ثمرة التحقق بالعبودية، بل أن للتحقق بالعبودية ثماراً كثيرة سامية.

ولقد حقق سيدنا رسول الله ﷺ العبودية كاملة تامة، لقد حققها في ذروتها .. فكانت صلاته، وكانت نسكه وكانت حياته بأكملها وكان موته لله رب العالمين، لا شريك له (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) [3] .

لقد حققها موفورة تامة، فآتاه الله عز وجل الدنيا والآخرة [4] .

---

(1) الدكتور عبد الحليم محمود "المنقذ من الضلال" المقدمة ص 11 ط دار الكتاب اللبناني بيروت.

(2) سورة الكهف: الآية رقم 65

(3) سورة الأنعام: الآيتان 162-163

(4) الدكتور عبد الحليم محمود "المنقذ من الضلال" المقدمة ص 12 بتصرف

ولا يجهل أحد من المسلمين — ولا أحد من المستشرقين الذين عنوا بدراسة الحركات الإسلامية — أن أول متنسك في الإسلام، هو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.. وقد ترسم كثير من الصحابة الأولين خطاه، واسترشدوا بهداه، فتنسك منهم أبو ذر، وصهيب وحذيفة، وأبو الدرداء، وأبو هريرة، وعمران الخزاعي، وغيرهم. وكانوا أول الأمر يدعون بالزهاد، أو العباد، أو النساك، أو البكائين أو الوعاظ، ولم ينكر عليهم هذا أحد.. لا صاحب الشريعة ولا أصحابه. بل أقروهم على خطتهم وفضلوهم على المستمتعين المتلذذين، واعترف لهم كثير من الصحابة بكرامات ومعارف لا تتاح لكافة المسلمين [1] .

وقد وضح ابن خلدون، نشأة هذه الطائفة، المتنسكة في الإسلام ثم أفاض في وصف الكشف، الذي يفوزون به على أثر هجرانهم للمادة وفي أن هذا الكشف يكون عن طريق الشهود، وفي أن مراتبهم تمكنهم من التصرف في العالم السفلي، تصرفا قويا.. فقال "هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة" [2] .. وأصله أن طريقة هؤلاء القوم — لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور، من لذة ومال، وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة..

وكان ذلك عاماً في الصحابة، والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة [3] .

ويمضي ابن خلدون فيقول "فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة اختصوا بمآخذ مدركة لهم. وذلك أن الإنسان، بما

(1) الدكتور محمد غلاب "التنسك الإسلامي" ص 33 ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية 1391هـ .
(2) يشير ابن خلدون إلى أن التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، كأن هذا الاسم أطل على هذه الطائفة في عهد "التدوين" عندما اشتهروا بالخشونة والرجولة ولبس الصوف والاستعداد للجهاد.
(3) ابن خلدون "المقدمة" ص 398 ط دار التحرير سنة 1386هـ القاهرة.

هو إنسان، إنما يتميز عن سائر الحيوان بالإدراك .. فالروح العاقل والمتصرف في البدن، ينشأ من إدراكات وإرادات، وأحوال وهي التي يميز بها الإنسان .. والمريد في مجاهداته، وعباداته لابد وأن ينشأ له عن كل مجاهدة، حال نتيجة تلك المجاهدة. وتلك الحال: إما أن تكون نوع عبادة فترسخ، وتصير مقاما للمريد، وإما أن لا تكون عبادة، وإنما تكون صفة حاصلة للنفس، من حزن أو نشاط أو غير ذلك، من المقامات. ولا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة" [1] .

ويواصل ابن خلدون الحديث عن الكشف والإطلاع فيقول: ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر.. يتبعها غالبا، كشف حجاب الحس، والإطلاع على عوالم من أمر الله، ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها، والروح من تلك العوالم.

وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس، وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوة وأعان على ذلك الذكر، فإنه كالغذاء لتنمية الروح، ولا يزال في نمو وتزايد، إلى أن يصير شهودا، بعد أن كان علما ويكشف حجاب الحس، ويتم وجود النفس، الذي لها من ذاتها.. وهو عين الإدراك فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي، وتقترب ذاته في تحقق حقيقتها من الأفق الأعلى.

وهذا الكشف كثيرا ما يعرض لأهل المجاهدة، فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم. وكذلك يدركون كثيرا من الواقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم في الموجودات وتصير طوع إرادتهم [2] . ولا يستطيع مؤمن إيمانا صحيحا الاعتراض على هؤلاء. وقد انتهلوا جميع العناصر

(1) ابن خلدون "المقدمة" ص 399 ط دار التحرير بتصرف واختصار.

(2) ابن خلدون المقدمة ص 400 .

الأولية لتنسكهم من الكتاب الكريم والأحاديث القدسية والنبوية والسنة الغراء، فاغترفوا من هذه المنابع السامية: أصول الإيمان ومبادئ التقوى، وعناصر الذكر والفكر وقواعد التطهر الباطني وقوانين السلوك العملي [1] .

الذي لا شك فيه أن المسلمين الأولين قد طفقوا منذ فجر الإسلام يتأملون في المثل القرآنية العليا ليتخذوا منها نبراسا يضيئون به أعماق قلوبهم ليستكشفوا في دخائلها عناصر الأحوال الروحية التي شاهدوها ممثلة في نبيهم، بعد أن ظفرت بالرضا الإلهي العميم.. ولقد ركزوا جهودهم الشخصية في هذا التأمل، حتى بلغ عندهم من العمق حدا لم تظفر بمثله كافة المسلمين.. وهذا الذي سماه الحسن البصري فيما بعد "علم الخواطر والقلوب" [2] .

ومما لا سبيل إلى الريب فيه بأي وجه من الوجوه أن المصدر الأول الذي أرشد المسلمين إلى هذا الصراط السوي، وأنار لهم طريق العروج إلى رب العالمين، هو القرآن الكريم، والأحاديث القدسية .. وأن المصدر الثاني هو أقوال النبي الجليل صلوات الله وسلامه عليه، وأفعاله الظاهرية وأحواله الباطنية التي كانوا يرونها ببصائرهم، ويستشفونها بقلوبهم فيتخذون منها مثلهم العليا ونماذجهم الرفيعة وشموسهم الساطعة التي تضيء لهم سبيل الحياة [3] .

ومن هنا يتضح أن السنة المحمدية عند هؤلاء الأتقياء، ليست هي الإحاطة بالأوامر الظاهرية، والأفعال الخارجية واتباعها فحسب، ولكنها أيضاً تطبيق أصول الفضائل الأخلاقية الباطنية [4] .

فالكتاب والسنة وحياة الرسول ﷺ تطبيق نموذجي للتجربة الدينية بجميع أبعادها ولأهم الأسس التي يقوم عليها التصوف [5] .

---

(1) الدكتور محمد غلاب "التنسك الإسلامي" ص 34

(2) الدكتور محمد غلاب "التنسك الإسلامي" ص 35

(3)الدكتور محمد غلاب "التنسك الإسلامي" ص 37

(4) المصدر السابق د/ محمد غلاب والتنسك الإسلامي" ص 36

(5) أنظر: الدكتور محمد مصطفى "علم التصوف" ص 207 ط مطبعة السعادة 1403هـ

إن التصوف جزء جوهري من الدين الإسلامي، إذ أن الدين يكون ناقصا بدونه، بل يكون ناقصا من جهته السامية ـ أعني جهة المركز الأساسي لذلك كانت فروضا رخيصة، تلك التي تذهب بالصوفية إلى أصل أجنبي "يوناني" أو "هندي" أو "فارسي"... وهي معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها تلك المصطلحات التي ترتبط باللغة العربية ارتباطا وثيقا.

وإذا كان هناك من تشابه بين الصوفية وما يماثلها في البيئات الأخرى فتفسير هذا طبيعي لا يحتاج إلى فرض الاستعارة، ذلك أنه مادامت الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد في جوهرها، وإن اختلفت فيما تلبسه من صور (1) .

ويقول الأستاذ ماسينيون: وقد بين "نيكولسون" أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل في الإسلام غير مقبول والحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأفكار التي اختص بها متصوفة المسلمين نشأت في قلب الجماعة الإسلامية نفسها أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث، وتقرئهما، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث وما حل بالأفراد من نوازل (2) .

ويذكر صاحب التبصير في الدين: ما يمتاز به أهل السنة عن غيرهم من الخوارج والقدرية، فيذكر أن سادس ما امتاز به أهل السنة هو التصوف والإشارات وما لهم فيها من الدقائق والحقائق (3) .

فمن القرآن والسنة استمد الصوفية أول ما استمدوا آراءهم في الأخلاق والسلوك ورياضاتهم العملية التي قاموا عليها من أجل تحقيق هدفهم من الحياة الصوفية (4) .

---

(1) الدكتور عبد الحليم محمود "الفيلسوف المسلم" ص 104 ط مكتبة الانجلو المصرية

(2) أنظر الدكتور عبد الحليم محمود "المنقذ من الضلال" ص 215

(3) أبو المظفر الاسفراييني "التبصير في الدين" ص 118ط عزت العطار، تحقيق الشيخ زاهد الكوثري

(4) الدكتور التفتازاني "مدخل إلى التصوف الإسلامي ص 38 ط دار الثقافة، 1979م.

وقد بين لنا الطوسي في "اللمع" أن للصوفية تخصصا بمكارم الأخلاق والبحث عن معاني الأحوال، وفضائل الأعمال، اقتداء بالنبي وصحابته، ومن تبعهم. وهذا كله موجود عمله في كتاب الله عز وجل [1] .

ونظرة تحليلية إلى التصوف تبين لنا أن الصوفية على اختلافهم يتصورون طريقا [2] للسلوك إلى الله، يبدأ بمجاهدة النفس أخلاقيا، ويتدرج السالك له في مراحل متعددة، تعرف بالمقامات والأحوال وينتهي من مقاماته وأحواله إلى المعرفة بالله [3] .

فالتصوف الإسلامي بقضه وقضيضه، انبثق من الكتاب الكريم، والأحاديث القدسية، والنبوية. حيث انتهله أربابه من الحياة المحمدية ظاهرها وباطنها. وقد بدأها النبيﷺ ، وسار الصحابة رضوان الله عليهم فيها على نهجهم السامي واقتبسوا من أنواره السماوية المتلألئة دون أن يشوه جمال ذلك أجنبي أو يدنس نقاءه دخيل، لأن الاتجاه إلى السلوك الصوفي له مؤثراته الداخلية البحتة. وهي مؤثرات تتصل بالفرد من الناحية الداخلية، أكثر من أن تتصل بعامل خارجي. لابد ــ إذن ــ من أن يكون الاستعداد الشخصي الفردي الفطري موجودا مهيئا، ويكفي لأن يسلك عمليا هذا الطريق كلمة أو فكرة أو إشارة أو حادثة من الحوادث، فيأخذ فعلا في سيره نحو الله تعالى: (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي) .. هذا

---

(1) الطوسي "اللمع" ص 32

(2) الطريق لغة: السبيل الذي يطرق بالأرجل والجمع طرق وأطرق وأطرقاء، وأطرقة، وجمع الجمع طرقات. وعنه استعير كل مسلك يسلكه الإنسان في فعل محموداً كان أو مذموما.. الفيروز أبادي "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز" ح3 ص 504 ط المجلس والأصفهاني "مفردات غريب القرآن" مادة "طرق، ويقال الطريق والطريقة على سبيل الترادف. الفيروز آبادي" القاموس المحيط مادة طرق ويقال: الطريقة بمعنى السيرة والحالة، وطريقة الرجل: مذهبه "الشرتوني أقرب الموارد مادة "الطريقة".

وقد ورد اللفظان: طريق وطريقة في القرآن الكريم: قال تعالى "مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ" الأحقاف "30". وقال تعالى " إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا" طه "104"، وقال تعالى "وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا" الجن "16".

وقد شاع استخدام كلمتي: طريق وطريقة عند الصوفية للإشارة إلى مراحل السلوك إلى الله. أنظر التفتازاني "مدخل إلى التصوف الإسلامي" هامش ص 38 .

(3) التفتازاني "مدخل إلى التصوف الإسلامي" ص 38

العزم المصمم الذي يتمثل في هذه الكلمة الكريمة: لابد لـــه مـــن الاســـتعداد الفطري، الذي لا يغني عنه فلســـفة" أفلاطونيـــة" ولا "فيدانتـــا هنديـــة" ولا "زرادشتية فارسية".. وقد يكون المتجه إلى التصوف قارئا للأفلاطونية الحديثـــة، أو لا يكون وقد يكون على علم بعقائد "الهند" أو لا يكون..

فالمتخصص في الأفلاطونية الحديثة، لا يفيده تخصصه هذا في أن يكون صوفيا وكذلك الأمر في المتخصص في عقائد الهند [1] .

وقد قرأ الإمام الغزالي كتب الصوفية أنفسهم، ويحدثنـــا بذلـــك فيقـــول: "فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل "قوت القلوب" لأبي طـــالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي اليزيد البسطامي ــ قدس الله أرواحهم ــ وغير ذلك من كلام مشـايخهم، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصـــل عـــن طريقهم بالتعليم والسماح" [2] .

ويعلق فضيلة أستاذنا الإمام الدكتور عبد الحليم محمود على كلام الغـــزالي فيقول: ولكن ذلك لم يجعل منه صوفيا، ولم يكن الغزالي بهذه الكتب ولا بمطالعته لفلسفة اليونان، ودراسته لها دراسة عميقة صوفيا.. ولكـــن تبـــين أن أخـــص خواصهم ــ على حد تعبيره ــ ما لا يمكن الوصول إليه بالتعليم، بل بـــالذوق والحال، وتبدل الصفات ..

فليس التصوف ثقافة كسبية، تتأثر بهذا الاتجـــاه أو ذاك، وإنمـــا هـــو ذوق ومشاهدة، يصل الإنسان إليها عن طريق الخلوة والرياضة والمجاهدة والاشـتياق، بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب بذكر الله تعالى [3] .

---

(1) الدكتور عبد الحليم محمود "المنقذ من الضلال" ص 217 ط دار الكتاب اللبناني

(2) المصدر نفسه ص 217

(3) المصدر نفسه ص 218

توالت حركة التصوف بعد الصحابة عند التابعين، في كثير من البساطة بحيث كانت مقوماتها الذاتية هي: التأمل في آيات القرآن، ومحاولة استكشاف أسرارها العميقة، واقتناص مراميها البعيدة والزهادة، وكبح جماح النفس، والاعتكاف والتنفل، والتهجد [1] .

وكان المتصوفة في أول نشأتهم متفرقين، ولكنهم لم يلبثوا أن شعروا بالحاجة إلى اجتماعهم، وتأليفهم وحدة قوية، فتعارفوا واجتمعوا فريقين: أحدهما في البصرة، وثانيهما في الكوفة، وكون كل فريق منهما مدرسة لها تعاليمها وآراؤها التي تتفق مع ميوله الفطرية [2] .

تضافر هذا التكتل الطارئ مع بعض الآراء التي أعلنها المتصوفة والتي تبدو في ظاهرها للوهلة الأولى شاذة عن التعاليم الإسلامية السلفية على تكوين نوع من العداوة بينهم وبين الفقهاء المحدودي الدخل على أن الأولين من المتصوفة، لم يكونوا يتوقعون أن تنشب الحرب بينهم وبين الفقهاء يوما ما، وأن يدرس هؤلاء لهم عند الخلفاء والأمراء، وأن ينتهي بمقتل بعضهم، واضطهاد البعض الآخر..

يقول الدكتور محمد غلاب: "وفي الحق أنه لم يكد المتصوفة يعلنون أنهم يحاسبون القلوب والضمائر وينشغلون بالبواطن دون الظواهر حتى ثارت ثائرة الفقهاء، وهبوا يتهمونهم بالمروق على الشريعة التي تعلن في وضوح: أنها تحكم بالظواهر والله يتولى السرائر".. ويتابع الدكتور غلاب كلامه فيقول: "وليس الفقهاء وحدهم الذين دانوا ــ المتصوفة ــ وإنما سبقهم إلى ذلك القدرية

---

(1) الدكتور محمد غلاب "التنسك الإسلامي" ص 53

(2) ويذكر ماسينيون في دائرة المعارف الإسلامية أن مدرسة البصرة كان أصحابها مفطورين على النقد، لا يؤمنون إلا بالواقع، وكانوا على مذهب أهل السنة، وشيوخهم الحسن البصري ومالك بن دينار وفضل الرقاشي وصالح المري، وعبد الواحد بن زيد، ورباح بن عمرو القيسي"دائرة المعارف" ج 9 ص 330 بتصرف أما مدرسة الكوفة فتنزع نزعة مثالية ومن أبرز مدرسة الكوفة سعيد بن جبير وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وهناك مدارس أخرى منها مدرسة المدينة، ومدرسة مصر، راجع الدكتور التفتازاني "مدخل إلى التصوف الإسلامي" ص 78-79 .

وغيرهم من الغلاة، فرموهم بأهم لا يقصدون من وراء تنسكهم وتصوفـــهم إلا الرضا بالموجود.

أما المعتزلة والظاهرية، فقد كانوا يجدون من غير المعقول الموافقة علـــى مـــا يسميه المتصوفة "بالعشق" بين الخالق والمخلوق لأنه نظريا يقتضـــي التشـــبيه، وعمليا يسلتزم الملامسة والحلول" [1] .

وإن الباحث يجد أن الصوفية في القرن الثالث الهجري،اتجهوا إلى الكلام عـــن معاني لم تكن معروفة من قبل، فتكلموا عن الأخلاق والتنفـــس، والســـلوك، محددين طريقا إلى الله، يترقى السالك له، فيما يعرف بالمقامات والأحوال، وعـــن المعرفة ومناهجها...ووضعوا القواعد النظرية لهذا كله، كما حـــددوا رســـوما عملية معينة لطريقتهم [2] . ويمكن أن يؤكد الدارس للتصوف أن القرن الثـــالث هو بداية تكون علم التصوف بمعناه الدقيق.. واستمر هذا التصوف كذلـــك في القرن الرابع بحيث يمكن أن نعتبر تصوف هذين القرنين تصوفا إسلاميا ناضجـــاً اكتملت له كل مقوماته [3] حيث دخل التصوف دور المواجـــد، والكشـــف والأذواق، وهذا الدور يقع في القرنين الثالث والرابع، اللذين يمثـــلان العصـــر الذهبي للتصوف الإسلامي في أرقى وأصفى مراتبه [4] .

وقد أصبح التصوف منذ القرن الثالث متميزا على علم الفقه مـــن ناحيـــة الموضوع والمنهج والغاية.. ولا شك أنه كان لحركة تدوين العلوم الشرعية الـتي سبقت تدوين التصوف أثر في ذلك .

على نحو ما يقول ابن خلدون : "فلما كتبت العلوم ودونت، وألف الفقـــهاء في الفقه وأصوله، والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهـــل هـــذه

---

(1)الدكتور محمد غلاب "التنسك الإسلامي" ص 54

(2) الدكتور التفتازاني "مدخل إلى التصوف الإسلامي" ص 95

(3) المصدر نفسه ص 96 .

(4) الدكتور أبو العلا عفيفي "التصوف الثورة الروحية في الإسلام" ص92

الطريقة في طريقهم، فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك" [1] .

ويصف ابن خلدون المقابلة بين علمي الفقه والتصوف قائلا: "وصار علم الشريعة على صنفين: صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا، وهو الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات، وصنف مخصوص بالقوم الصوفية ـ في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها، والكلام في الأذواق، والمواجد العارضة في طريقها، وكيفية الترقي فيها من ذوق إلى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك" [2] .

ويذكر الدكتور أبو العلا عفيفي أنه "لولا التصوف لكان الإسلام كما فهمه المتزمتون من الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة، دينا خاليا من الروحانية العميقة، ومن العاطفة وكانت عباداته ومعاملاته مجموعة جامدة من القواعد والأشكال والأوضاع، ومعتقداته مجموعة من التجريدات أقل ما يقال عنها أنها تباعد بين العبد وربه، بدلا من أن تقربه إليه، وتورث صاحبها الشك والحيرة والقلق، بدلا من الطمأنينة واليقين" [3] ، والشيخ مصطفى عبد الرزاق يعلق على مادة "التصوف" في دائرة المعارف الإسلامية فيقول: "ولما نشأ البحث في العقائد والتماس الإيمان من طريق النظر أو النصوص المقدسة وتوجهت همم المسلمين إلى التماس المعرفة على أساليب المتكلمين، أصبح الكمال الديني التماس الإيمان

---

(1) انظر عبد الرحمن بن خلدون "المقدمة" ص 399 ط التحرير. ومما يلاحظ أنه بدأت تدوين بعض السنن في وقت مبكر قبل نهاية القرن الأول الهجري في عهد عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة 101 هـ. ولكن تدوينها بالمعنى الحقيقي يقع بين سنتي 120-150 هـ وكان تدوين الفقه كذلك أثناء القرن الثاني. أما أصول الفقه فأول من صنف فيه الشافعي المتوفى سنة 204هـ وأما علم الكلام فظهر التصنيف فيه في القرن الثاني أيضاً خصوصاً في العصر العباسي. أنظر الشيخ مصطفى عبد الرزاق "تمهيد لتاريخ الفلسفة" ص 195-205-222-288.

(2) عبد الرحمن بن خلدون "المقدمة" ص 399

(3) الدكتور التفتازاني "مدخل إلى التصوف الإسلامي" ص 97

والمعرفة من طريق التصفية والمكاشفة وأصبح عبارة عن بيان هـــذه الطريقـــة وسلوكها" [1] .

ويرى أهل البحث والدراسة: أن التصوف ليس أسلوبا من الأساليب يحيـــا الصوفي بمقتضاه وحسب، بل هو في الوقت نفسه وجهة نظر خاصة تحدد موقف العبد من ربه أولاً، ومن نفسه ثانيا ومن العالم وكل ما فيه ومن فيه آخر الأمر.. فالصوفية لم يشاركوا عامة المسلمين في نظرهم إلى الدنيا، ولم يشاركوا الفقـــهاء أو المتكلمين في نظرهم إلى الدين، ولم يشاركوا الفلاســـفة في نظرهـــم إلى الله والإنسان والعالم، ولهذا جاء التصوف الإسلامي ثورة شـــاملة علـــى هـــؤلاء جميعا[2].

والباحث يجد أن كثيرا من أصحاب التراجم والتأريخ للمذاهب والفرق قـــد عد الصوفية فرقة من فرق المسلمين. ويقول الكلاباذي عن الصوفية في كتـــاب "التعرف لمذهب أهل التصوف" "أجمعوا على أن الدليل على الله هو الله وحـــده، وسبيل العقل عندهم سبيل العاقل في حاجته إلى الدليل، لأنه محدث والمحـــدث لا يدل على مثله" [3] .

وواضح أنه بهذا التمييز في التفكير يمكن أن يعد الصوفية فرقة مـــن الفـــرق الإسلامية [4] .

ومن عد الصوفية فرقة ابن النديم في كتاب "الفهرست" حيث قال:

1 ـــ في المعتزلة والمرجئة.

2 ـــ في متكلمي الشيعة الإمامية والزيدية.

---

(1) الدكتور مصطفى عبد الرزاق "دائرة المعارف الإسلامية" المجلد 9 ص 346 ط كتاب الشعب.

(2) الدكتور أبو العلا عفيفي "التصوف الثورة الروحيـــة في الإســـلام" ص 104 ط دار المعـــارف 1963م.

(3) الكلاباذي "التعرف لمذهب أهل التصوف" ص 78ط مكتبة الكليات الأزهرية

(4) طه عبد الرؤوف سعد ومصطفى الهواري "المرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المســـلمين" ص 111 ط. الكليات الأزهرية

3 ـــ في المجبرة الحشوية.

4 ـــ في متكلمي الخوارج.

5 ـــ في السياح والزهاد والعباد والمتصوفـــة المتكلمـــين علـــى الخطـــرات والوساوس [1].

وذكرهم الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال بأهم فرقة من الفرق الطالبـــة للحق: "أن أصناف الطالبين للحق أربع فرق: المتكلمين، والباطنية، والفلاسـفة، والصوفية" [2] .

ويقول الرازي في "اعتقادات فرق المسلمين" : اعلم أن أكثر من قص فرقـة الأمة لم يذكر الصوفية ـــ وذلك خطأ ـــ لأن حاصل قول الصوفية أن الطريـــق إلى الله تعالى هو التصفية والتجرد عن العقلائق البدنية وهذا طريق حسن وهـــم فرق" [3] .

وابن الجوزي في كتاب "تلبيس إبليس" يذكـــر: "أن التصـــوف مذهـــب معروف" [4] .

والتصوف الإسلامي ينفرد عن سائر مظاهر الفكر الإنساني بعامة والإسلامي بخاصة، حيث أن التصوف تجربة ذاتية ومنهجه الذوق، فالتصوف في جوهـــره تجربة روحية تخص الصوفي الذي يعانيها ويكابدها. مصدر هـــذه المعانـــاة إرادة عامة من الصوفي أن يتصل بالله. ولما كانت هذه الأحوال تخص من يعانيها فضلا عن أنها لا تخضع لحكم العقل ومقولاته، فإنه يحق للصوفية أن يعترضوا على كل من يحاول أن يزن تجاربهم وتعبيراتهم عنها بميزان العقل، لأن العقـــل وقوانينـــه مشترك بين الناس جميعا.

---

(1) ابن النديم "الفهرست" ص 245 ـــ 260 ط دار المعرفه بيروت

(2) الغزالي "المنقذ من الضلال" ص 86 ط دار الكتاب اللبناني

(3) فخر الدين الرازي "اعتقادات فرق المسلمين والمشركين" ص 115 ط الأمباني

(4) ابن الجوزي "تلبيس إبليس" ص 165 ط مكتبة الدعوة الإسلامية

أما التجارب الصوفية فلا تخص غيرهم [1].

وإذا كانت التجربة الصوفية حال ذاتية فإنه يلزم عن ذلك نتيجتان:

1 ـــ أن تتفاوت التجارب وفقا لمقام كل صوفي في الطريق، ووفقا للاستعداد الروحي لكل منهم، ومن ثم تختلف تعبيراتهم، وأن لا تتفق أحوالهم، يقول رويم بن محمد البغدادي: الصوفية بخير ما اختلفوا، فإن اتفقوا فلا خير فيهم، ذلك أن اتفاقهم إنما يعني أنهم احتكموا إلى شيء مشترك بجمعهم: إنه العقل، تماما كما تتفق الفرقة الواحدة في أصول عقلية تجمعهم وحينئذ لن يصبحوا صوفية [2]، ولكن هذا لا ينفي اشتراك القوم في أصول الطريق كالزهد والخوف والرجاء وغيرها من المقامات، وكالمحبة والأنس والشهود وغير ذلك من الأحوال. ونجد أن القوم قد اتفقوا على مصطلحات معينة يطلقونها على مسائلهم وارداتهم، وعلى منهج في المعرفة ذي ثلاث شعب حسية وعقلية وقلبية [3].

2 ـــ وإذا كانت النتيجة الأولى هي تفاوت التجارب وفقاً لمقام كل صوفي فإن النتيجة الثانية هي تفاوت أحوال الصوفي الواحد في أوقاته المختلفة وفقا لاستعداده وحالته النفسية وترقيه في الطريق. وإذا كانت نقطة البدء في أي نشاط عقلي ـــ كالفلسفة ـــ أنا أفكر أنا أشك باعتبار الشك مظهرا للتفكير، فإن منطلق التجربة الروحية التي هي جوهر التصوف "أنا أريد"[4].

يقول الدكتور أبو العلا عفيفي:

---

(1) أنظر الدكتور أحمد محمود صبحي "التصوف إيجابياته وسلبياته" ص 365ط عالم الفكر، ع2 مجلد 6 الكويت.

(2) أنظر الدكتور أحمد محمود صبحي "التصوف إيجابياته وسلبياته" ص 366 ط عالم الفكر، ع 2 مجلد 6 الكويت

(3)راجع الدكتور الشاذلي مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة ص "ج"

(4) أنظر الدكتور صبحي "التصوف إيجابياته وسلبياته" ص 366 ع 2 م 6

"التصوف هو المظهر الديني الحقيقي عند المسلمين، لأنه المرآة التي تنعكس على صفحتها الحياة الروحية الإسلامية في أخص مظاهرها.. فإذا أردنا أن نبحث عن العاطفة الدينية الإسلامية في صفائها ونقائها وعنفها وحرارتها وجدناها عند الصوفية.. وإذا أردنا أن نعرف شيئا عن الصلة الروحية بين المسلم وربه، كيف يصور هذه الصلة وكيف يجاهد طول حياته في توكيدها وتدعيمها، وكيف يضحي بكل عزيز لديه ــ بما في ذلك نفسه ــ محافظة وغيرة عليها، وجب أن نقرأ سير الصوفية المسلمين ونتدبر أقوالهم" [1] .

ومن أراد أن يلتمس معنى التصوف فسوف يجد ذلك في حياة الصوفية إذ التصوف في حقيقته سلوك عملي..

وإنك تجدني أكتفي في هذا التمهيد بما ذكرته، حيث رأينا اتقاد الجذوة والارتقاء إلى عوالم الانشراح، ومساحات القرب، وحيث يجوب السالك رياض اليقين، وتطل نفسه على نور البصيرة الذي لا يعتريه غروب، ويتوفر لديه الوازع الداخلي، الذي لا يعقبه غياب.. وتتجلى للإنسان فيوضات الرحمة ويستشعر جمال اللطف الإلهي، وسعة العطاء الرباني، وغزارة الإفاضة السخية.

---

(1) أنظر الدكتور أبو العلا عفيفي "التصوف الثورة الروحية في الإسلام" ص 103

كلمة تصوف

إن الباحث في كلمة "تصوف" يجد أن الكلمة من أكثر الكلمات تداولا وذيوعا وانتشارا واستعمالا. فقد ظفرت بما لم يظفر به غيرها من الكلمات.

ولا يخفى أن البحوث والدراسات قد سجلت لكلمة "تصوف" تحركات واسعة، في مجال الفكر الإسلامي. وقل أن يخلو كتاب يتصل بالسلوك من القديم والحديث، من دوران هذه الكلمة، في كثير من صفحاته ومباحثه.

ذلك أن التصوف منذ أن اتخذ مكانه في المجتمع الإسلامي وهو مجال صراع عنيف، وجدل متصل، بين المؤيدين والمعارضين والأولياء والخصوم، مما أعطى لكلمة تصوف، وما جاء منها، وتولد عنها شأنا وذيوعا واعتباراً.

ومما يجدر أن نعرفه: أن يروى عن أحد الصالحين أنه كان يمتنع عن التحدث فيما يتعلق بشخصه ولو أمكنه أن يلغي سيرته الشخصية من أذهان الناس، ولو أمكنه أن يلغي اسمه، لفعل راضيا، مغتبطا. ذلك أن التسمية والجانب الشخصي الفردي في الإنسان لا قيمة لهما إذا نظرنا إلى الآفاق العليا من الروحانية.. ومما يتلاءم مع هذا الاتجاه، قول بعض الصوفية ما معناه: "إن طائفة الصوفية لو تنزهت عن الفردية، والشخصية لنزههم الله عند التسمية، تنزيها مطلقا. ولكن لما شابت الفردية أعمال بعضهم، وضع لهم اسم واندرجوا تحت اسم "الصوفية"[1] .

وأول مشكلة تثار بالنسبة إلى التصوف الإسلامي، هي مشكلة اسمية. من أين اشتق، شأنه شأن علم الكلام. وهي مشكلة قديمة، نجدها تثار في أقدم ما لدينا

---

(1) انظر الدكتور عبد الحليم محمود "المنقذ من الضلال للغزالي" المقدمة ص 153 ط دار الكتاب اللبناني بيروت 1985م

من كتب التصوف الإسلامي مثل كتاب "اللمع" لأبي نصـــر الســـراج [1]، ثم تناولها من بعده من كتبوا عن التصوف [2].

فالسراج يعقد في "اللمع" فصلا بعنوان: "باب الكشف عن اسم الصوفيـــة، ولم سموا بهذا الاسم ولم نسبوا إلى هذه اللبسة".

يبدأ بالسؤال عن السبب في تسمية "الصوفية" بهذا الاسم دون نســـبتهم إلى حال، ولا إلى علم معين، كما ينسب الفقهاء إلى الفقه وأصحاب الحديـــث إلى الحديث.

قائلا: فلم قلت الصوفية، ولم تنسبهم إلى حال، ولا إلى علم، ولم تضف إليهم حالا، كما أضفت الزهد إلى الزهـــاد، والتوكـــل إلى المتوكلـــين والصـــبر إلى الصابرين، فيقال له: لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلـــم دون نـــوع، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم. وذلك لأنهـــم معـــدن جميـــع العلوم، ومحل جميع الأحوال المحمودة، والأخلاق الشريفة، سالفا ومستأنفاً. وهم مع الله تعالى في الانتقال من حال إلى حال، مسجلين للزيادة. فلمـــا كـــانوا في الحقيقة كذلك لم يكونوا مستحقين اسما دون اسم، فلأجل ذلك ما أضفت إليهم حالا دون حال ولا أضفتهم إلى علم دون علم لأني لو أضفت إليـــهم في كـــل وقت حالاً" هو" ما وجدت الأغلب عليهم من الأحوال والأخلاق، والعلـــوم، والأعمال، وسميتهم بذلك لكان يلزم أن أسميهم في وقت باسم آخر، وكنـــت أضيف إليهم في كل وقت، حالاً دون حال، على حسب ما يكـــون الأغلـــب عليهم [3].

والباحث في منشأ كلمة "تصوف" يجد أن العلماء القدامى والمحدثين اختلفـــوا في منشأ هذه الكلمة اختلافا واضحاً.

---

(1) أبو النصر السراج المتوفى في شهر رجب سنة 378 هـ ــ أكتوبر سنة 988م

(2) أنظر الدكتور عبد الرحمن بدوي "تاريخ التصوف الإسلامي" ص5 ط وكالـــة المطبوعـــات الكويـــت 1975م

(3) راجع: أبو النصر السراج الطوسي "اللمع" ص40، ط دار الكتب الحديثة بمصر 1380هـ

يقول الهجويري [1] : وقد تكلم الناس في تحقيق هذا الاسم كثيراً وألفوا كتبا في ذلك.

ـــ فقالت جماعة: أن الصوفي يسمى بالصوفي، لأنه يلبس ثياب الصوف.

ـــ وقالت جماعة: إنهم سموا صوفية لأنهم في الصف الأول.

ـــ وقالت طائفة: إنهم سموا كذلك لأنهم يشبهون أهل الصفة.

ـــ وقال آخرون: إن هذا الأسم مشتق من الصفاء [2] .

ويذكر الكلاباذي [3] : أن طائفة قالت: إنما سموا الصوفية صوفية لصفاء أسرارهم ونقاء آثارهم.. وقال بعضهم الصوف من صفت لله معاملته، فصفت له من الله عز وجل كرامته. وقال قوم إنما سموا صوفية لأنهم في الصف الأول، بين يدي الله عز وجل، بارتفاع هممهم إليه، وإقبالهم عليه ووقوفهم بسرائرهم بين يديه، وقال قوم: إنما سموا صوفية، لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة، الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ.

وقال قوم إنما سموا صوفية للبسهم الصوف [4] .

ويرى الدكتور زكي مبارك أن كلمة "تصوف" تحتمل أربعة فروض:

الأول: أن يكون الصوفي منسوبا إلى الصوفية.

والثاني:أن يكون منسوبا إلى الصوف.

والثالث: أن يكون مشتقا من الصفاء.

والرابع: أن يكون منسوبا إلى كلمة "سوفيا" اليونانية [5] .

---

(1) الهجويري هو علي بن عثمان بن أبي الجلابي الهجويري. موطن غزنوي ينسب إلى مدينة غزنة موطن الأسرة الغزنوية التي أسست في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري دولة كبيرة، والهجويري من المرجح أنه عاش في الفترة ما بين العقدين التاسع والعاشر من القرن الرابع الهجري، والعقد السابع من القرن الخامس الهجري "كشف المحجوب" ج1 ص 15

(2) راجع الهجويري "كشف المحجوب" ج1 ص 127 تحقيق الدكتور إسعاد عبد الهادي، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة

(3) الكلاباذي: محمد بن إبراهيم بن يعقوب الملقب بتاج الدين الكلاباذي البخاري من أهل بخارى وكان حنفيا في الفقه، وصوفيا في المسلك. توفى سنة 380 هـ مقدمة كتاب "التعرف" ص 20 ط مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة 1400هـ

(4)أنظر : الكلاباذي "التعرف لمذهب أهل التصوف" ص 28-29 ط مكتبة الكليات الأزهرية.

(5) راجع الدكتور زكي مبارك "التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق" ج1 ص 41 ط المكتبة العصرية بيروت

وهناك أقوال أخرى ذكرها العلماء الباحثون. ويبدو أنه من المستحسن أن نعرض لهذه الآراء، لنتبين الطريق في وضوح..

ـــ يقول أقدم مؤرخ للتصوف : السراج الطوسي في كتابه "اللمع": "نسبتهم ـــ أي الصوفية ـــ إلى ظاهر اللبسة. لأن لبسة الصوف، دأب الأنبياء عليهم السلام، وشعار الأولياء والأصفياء ويكثر ذلك في الروايات والأخبار. فلما أضفتهم إلى ظاهر اللبسة .. كان ذلك اسماً مجملاً، مخبرا عن جميع العلوم والأعمال والأخلاق، والأحوال الشريفة المحمودة"[1] .

وأنت ترى مما ذكره السراج الطوسي: أن اسم الصوفية ـــ عنده ـــ مأخوذ من كون اللباس الغالب عليهم، هو لبس الصوف. ويستدل السراج الطوسي، على نسبة التصوف، إلى الصوف بقوله "ألا ترى أن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى، عليه السلام، فنسبهم إلى ظاهر اللبسة. فقال عز وجل: "﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ [2] .

وكانوا قوماً يلبسون البياض فنسبهم الله تعالى إلى ذلك ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم، والأعمال، والأحوال، التي كانوا بها مترسمين فكذلك الصوفية عندي نسبوا إلى الظاهر، ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم، والأحوال، التي هم بها مترسمون لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام،والصديقين، وشعار المساكين المتنسكين. [3] والسهروردي يجعل في كتابه " عوارف المعارف" الباب السادس، تحت عنوان: "في ذكر تسميتهم ـــ أي الصوفية ـــ بهذا الاسم" ويذكر في هذا الباب كثيراً من الأدلة التي جاءت في هذا الموضوع.

ـــ عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ : "كان يجيب دعوة العبد، ويركب الحمار، ويلبس الصوف" [4] .

---

(1) السراج الطوسي "اللمع" ص 40

(2) سورة المائدة : الآية 112

(3) أبو النصر الطوسي "اللمع" ص 41

(4) السهروردي "عوارف المعارف" ص 59 ط دار الكتاب العربي بيروت، 1966م.

ومن هذا الحديث ينطلق السهروردي إلى القول: بأنه من هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سموا "صوفية" نسبة إلى ظاهر اللبسة، لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق، ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام [1] .

ـــ وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : "مر بالصخرة من الروحاء سبعون نبيا حفاة، عليهم العباء، يؤمون البيت الحرام" [2] .

ـــ وقيل: إن عيسى ـــ عليه السلام ـــ كان يلبس الصوف، والشعر، ويأكل من الشجر ويبيت حيث أمسى[3] .

ـــ وقال الحسن البصري ـــ رضي الله عنه ـــ لقد أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف .. ووصفهم أبو هريرة وفضالة بن عبيد فقالا: كانوا يخرون من الجوع حتى يحسبهم الأعراب مجانين، وكان لباسهم الصوف [4] .

فكان اختيارهم للبس الصوف لتركهم زينة الدنيا، وقناعتهم بسد الجوعة وستر العورة، واستغراقهم في أمر الآخرة، فلم يتفرغوا لملاذ النفوس وراحاتها لشدة شغلهم بخدمة مولاهم، وانصراف هممهم إلى أمر الآخرة .

وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق لأنه يقال "تصوف" إذا لبس الصوف، كما يقال "تقمص" إذا لبس القميص [5] .

ولما كان حالهم بين سير وطير لتقلبهم في الأحوال، وارتقائهم من عال إلى أعلى منه، لا يقيدهم وصف، ولا يحبسهم نعت، وأبواب المزيد علماً وحالاً عليهم مفتوحة، بواطنهم معدن الحقائق، وجمع العلوم، فلما تعذر تقيدهم بحال تقيدهم لتنوع وجدانهم، وتجنس مزيدهم، نسبوا إلى ظاهرة اللبسة [6] .. ويعلل السهروردي نسبهم إلى ظاهرة اللبسة فيقول:

---

(1) المصدر السابق ص 59
(2) المصدر السابق ص 59
(3) المصدر السابق ص 59
(4) السهروردي "عوارف المعارف" ص 59 ط دار الكتاب العربي بيروت، 1966م.
(5) المصدر السابق ص 60
(6) المصدر السابق ص 60

1 ـــ إن ذلك أبين في الإشارة إليهم، وأدعى إلى حصر وصفهم، لأن لبس الصوف كان غالبا على المتقدمين من سلفهم، وأيضا لأن حالهم حال المقربين.

2 ـــ ولما كان الاعتزاء إلى القرب وعظم الإشارة إلى قرب الله تعالى أمر صعب، يعز كشفه والإشارة إليه. وقعت الإشارة إلى زيهم سترا لحالهم، وغيرة على عزيز مقامهم، أن تكثر الإشارة إليه، وتتداوله الألسنة. فكان هذا أقرب إلى الأدب، والأدب في الظاهر والباطن، والقول والفعل، عماد أهل الصوفية[1].

3 ـــ وفيه معنى آخر. وهو أن نسبتهم إلى اللبسة، تنبئ عن تقللهم من الدنيا، وزهدهم فيما تدعو النفس إليه بالهوى من الملبوس الناعم، حتى أن المبتدئ المريد الذي يؤثر طريقهم، ويحب الدخول في أمرهم يوطن نفسه على التقشف والتقلل، ويعلم أن المأكول أيضا من جنس الملبوس، فيدخل في طريقهم على بصيرة. وهذا أمر مفهوم معلوم عند المبتدئ، والإشارة إلى شيء من حالهم من تسميتهم بهذا أنفع وأولى.

4 ـــ وأيضا غير هذا المعنى مما يقال: أنهم سموا صوفية لذلك يتضمن دعوى. وإذا قيل سموا صوفية للبسهم الصوف كان أبعد من الدعوى، وكل ما كان أبعد من الدعوى كان أليق بحالهم [2].

5 ـــ وأيضا لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم. ونسبتهم إلى أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن. والحكم بالظاهر أوفق وأولى. فالقول بأنهم سموا صوفية للبسهم الصوف أليق وأقرب إلى التواضع [3].

ويقرب أن يقال: لما آثروا الذبول، والخمول، والتواضع، والإنكسار، والتخفي والتواري، كانوا كالخرقة الملقاة، والصوفية المرمية التي لا يرغب فيها، ولا يلتفت إليها فيقال: صوفي نسبة إلى الصوفة كما يقال: كوفي نسبة إلى الكوفة. وهذا ما ذكره بعض أهل العلم. والمعنى المقصود به قريب ويلائم

---

(1) السهروردي "عوارف المعارف" ص 60 ط دار الكتاب العربي بيروت، 1966م.
(2) السهروردي " عوارف المعارف" ص 61
(3) المصدر السابق ص 60

الاشتقاق ولم يزل لبس الصوف اختيـــار الصـــالحين، والزهـــاد والمتقشـــفين والعباد[1].

ويرى الدكتور مبارك: أن يكون الصوفي منسوبا إلى الصوف أصح الفروض، ولتأييد هذا الفرض شواهد كثيرة جداً [2] . وجاء في مرثية عمر لرسول الله ﷺ أنه قال : "بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد اتبعك في قلة سنك، وقصر عمـــرك، ما لم يتبع نوحا، في كثرة سنه وطول عمره. ولقد آمن بك الكثير وما آمن معـــه إلا القليل. بأبي أنت وأمي يا رسول الله لو لم تجالس إلا كفؤا لك ما جالســـتنا، ولو لم تنكح إلا كفؤا لك ما نكحت إلينا، ولو لم تؤاكل إلا كفؤا ماواكلتنـــــا. فلقد والله جالستنا، ونكحت إلينا، وواكلتنا ولبست الصوف، وركبت الحمـار، وأردفت خلفك، ووضعت طعامك على الأرض، ولعقت أصابعك تواضعاً منك" [3] .

والدكتور زكي مبارك يعلق على هذا النص بقوله: "وهذا النص على جـــانب عظيم من الأهمية. من المحتمل أن يكون الصوفية لبسوا الصـــوف أول الأمـــر. ليصلح لهم الاقتداء بتواضع الرسول ﷺ. ولا سيما إذا تذكرنا أن الرسول أقبل على أهل الصفة، فواساهم، ولم يكن عندهم غير جباب الصوف [4] .

والصوف قديما كان مظهر التخشن، والتقشف. وقد وصفوا ابن أدهم بأنـــه: حمل جلده على ضعفه خشونة الصوف. وأخذوا على المرائين: أنهـــم يعذبـــون أنفسهم بلبس الصوف [5] .

وحدث المبرد أن محمد بن جعفر بن يحيي بن خالد بن برمك قال :

"قال أبي لأبيه يحيى بن خالد بن برمك ـــ وهم في القيود والحبس: يا أبـــت بعد الأمر والنهي والأموال العظيمة أصارنا الدهر إلى القيود، ولبس الصـــوف، والحبس" [6] .

---

(1) المصدر السابق ص 61
(2) الدكتور زكي مبارك "التصوف الإسلامي" ج1 ص 43
(3) الغزالي "إحياء علوم الدين" ج1 ص 320
(4) الدكتور زكي مبارك "التصوف الإسلامي" ج1 ص 45
(5) ابن الجوزي " تلبيس إبليس" ص 151
(6) البغدادي "تاريخ بغداد ج 14 ص 132

فلبس الصوف هنا علامة الذل، وسوء الحال [1].

وفي هذا المعنى قول أبي تمام في تقلب الزمان:

كانوا برود زمانهم فتصدعوا * فكأنما لبس الزمان الصوفا

وقول أبي فراس يخاطب سيف الدولة بن حمدان:

يا واسع الدار كيف توسعها * ونحن في الصخر نزلزلها
يا ناعم الثوب كيف تبدله * ثيابنا الصوف ما نبدلها

وقول الشريف الرضي يصف أباه بالوقار:

ما التذ لبس الصوف إلا * من تعمم بالقتير
متخدد الخدين مغبر * الذوائب والضفور
أسر الوقار طماحه * والقد أملك بالأسير [2]

ويذكر السراج الطوسي في كتاب "اللمع" باب "ما روي عن رسول الله ﷺ في أخلاقه، وأفعاله، وأصوله، التي اختارها الله تعالى له" أن من تواضع الرسول ﷺ أنه كان يلبس الصوف، وينتعل المخصوف، ويركب الحمار، ويحلب الشاة، ويخصف نعله، ويرقع ثوبه، وكان لا يأنف أن يركب الحمار، ويردف خلفه" [3].

وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أكل خشفا ولبس خشنا، لبس الصوف، واحتذى المخصوف [4].

وعن أبي موسى قال : كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويلبس الصوف، ويعتقل الشاة، ويأتي مراعاة الضيف [5].

---

(1) راجع: الدكتور زكي مبارك "التصوف الإسلامي" ج1 ص 45
(2) الدكتور زكي مبارك " التصوف الإسلامي" ج1 ص 45
(3) السراج الطوسي "اللمع" ص 136
(4) رواه ابن ماجة والحاكم
(5) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. قاله الحافظ الهيثمي

وقال عبد الله بن شداد: "أربع من كن فيه برئ من الكبر: من اعتقل البعير، وركب الحمار، ولبس الصوف، وأجاب دعوة الرجل الدون" [1] .

ومن كلام ابن الجوزي: "كان الزهد من بواطن القلوب، فصار في ظاهر الثياب. كان الزهد حرقة، فصار اليوم خرقه. ويحك.

صوف قلبك لا جسمك. وأصلح نيتك لا مرقعتك" [2] .

الصوفية إذن نسبوا إلى ظاهر اللباس. ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال، التي هم بها موسومون. ومن هنا كان أرجح الأقوال وأقربها إلى العقل : مذهب القائلين بأن الصوفي نسبة إلى الصوف. وأن المتصوف مأخوذ منه أيضاً. ولهذا القول وجه سائغ في الاشتقاق. وهو مختار كبار العلماء من الصوفية[3] .

يقول أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله:

وإذا كانت الكلمة تنسب إلى الملبس ـــ وهو مظهر وشكل ورسم ـــ فليس معنى ذلك: أن التصوف مظاهر وأشكال. وليس من المحتم دائما أن يكن المعنى الأصلي للاسم هو المراد مما وضع الاسم له. إذ المعنى الأصلي قد يتطور، ويتغير ويختلف، وقد يقصد عكسه، ومن أجل ذلك، فإنه لا مجال لتخوف هؤلاء الذين لا يريدون أن ينسبوا التصوف إلى الصوف بحجة أن انتسابه إلى المظاهر يحط من شأنه. حقيقة إن الباحثين كثيراً ما يجدون صلة وثيقة بين المعنى الأصلي للاسم وما وضع الاسم له، أو بين الاسم والمسمى.

ولكن ذلك ليس مطرداً. والواقع أن التصوف معنى معروف لا شأن له بالمظاهر والأشكال[4] .

إن هذه الكلمة " تصوف" لم توضع في الأصل للتصوف بمعناه العادي وإنما وضعت في المبدأ لتدل على نمط من العزوف عن الدنيا. إنما كانت علامة الزاهدين والمتنسكين. ولقد رأى هؤلاء الزهاد من ناحية الملبس في الصوف ما

(1) الجاحظ "البيان والتبيين" ج3 ص 68

(2) أنظر الدكتور زكي مبارك "التصوف الإسلامي في الأخلاق والأدب" ج1 ص 46

(3) مصطفى عبد الرزاق "التصوف" ص 62 ط دار الكتاب اللبناني بيروت، 1984م.

(4) الدكتور عبد الحليم محمود "المنقذ من الضلال للغزالي" ص 157 ، 158

يحقق أهدافهم التي تتصل بالتقشف، والشظف والخشونة. فهو متـين رخيص خشن لا يحتاج الإنسان معه في الشتاء إلى غيره، ولا يحتاج إلى تغييره كثيراً، ذلك أنه لا يبلى بسرعة فتصوفوا، أي لبسوا الصوف.

وكان لابد من اسم يطلق على هؤلاء. وكان من السهولة بمكان أن يطلق عليهم "صوفية" وأطلق الاسم مصادفة أو تعمداً، فذاع وشاع وأصبح الزهاد يعرفون في البيئات العربية باسم "الصوفية". وإذا كانت الكلمة تنسب إلى الصوف فهي كلمة موفقة كل التوفيق. ولعل عناية المقادير هي التي هيأت لها الجو للظهور والشيوع [1] .

ـ ويرى بعض الباحثين أن كلمة "تصوف" تنسب إلى رجل يقال له :صوفة، يقول أبن الجوزي: نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا، وانقطعوا إلى العبادة، واتخذوا من ذلك طريقة تفردوا بها وأخلاقا تخلقوا بهـدوراوا أن أول من انفرد بخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام رجل يقال له صوفة واسمه: الغوث بن مر.

فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى، فسموا بالصوفية [2] ويقول العلماء: إن هذا رأي يصعب الأخذ به لسذاجته.

ـ ويذكر ابن الجوزي أن وليد بن القاسم سئل: إلى أي شيء ينسب الصوفي؟ فقال: كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا إلى الله عز وجل وقطنوا الكعبة، فمن تشبه بهم فهم الصوفية[3]. ويذكر أحد العلماء: أن هؤلاء هم المعروفون بصوفة ولد الغوث بن مر أخي تميم بن مر. وكانت الإجازة بالحج للناس من عرفة إلى الغوث بن مر بن طابخة ثم كانت في ولده، وكان يقال لهم: صوفة، وكانت إذا حانت الإجازة قالت العرب : أجز صوفة[4] .

---

(1) الدكتور عبد الحليم محمود "المنقذ من الضلال للغزالي" ص 158-159
(2) ابن الجوزي "تلبيس إبليس" ص 161
(3) المصدر السابق ص 161
(4) المصدر السابق ص 161

ويقول أبو عبيدة: وصوفة وصوفان يقال لكل من ولي البيت شيئا من غير أهله أو أقام بشيء من أمر المناسك[1] .

ومما يذكر في تسمية "الغوث بن مر" بصوفة أنه ما كان يعيش لأمه ولد، فنذرت لئن عاش لها ولد لتعلقن برأسه صوفة، ولتجعلنه ربيط الكعبة، ففعلت فقيل له : صوفة، ولولده من بعده.

ويروى أن أم تميم بن مرقد ولدت نسوة فقالت: لله علي إن ولدت غلاما لأعبدنه للبيت. فولدت الغوث بن مر فلما ربطته عند البيت أصابه الحر، فمرت به وقد سقط واسترخى فقالت: "ما صار ابني إلا صوفة" فسمي صوفة. وكان الحج وإجازة الناس من عرفة إلى منى، ومن منى إلى مكة لصوفة. فلم تزل الإجازة في عقب صوفة حتى أخذتها عدوان ولم تزل من عدوان حتى أخذتها قريش [2] .

وقد ذهب قوم إلى أن التصوف منسوب إلى أهل الصفة. وإنما ذهبوا إلى هذا لأنهم رأوا أهل الصفة على ما ذكر منه صفة في الانقطاع إلى الله عز وجل وملازمة الفقر.فإن أهل الصفة كانوا فقراء، يقدمون على رسول الله ﷺ،وما لهم أهل ولا مال فبنيت لهم صفة في مسجد رسول الله ﷺ وقيل: "أهل الصفة"[3].

وعن الحسن قال: بنيت صفه لضعفاء المسلمين، فجعل المسلمون يوصلون إليها ما استطاعوا من خير، وكان رسول الله ﷺ ـ يأتيهم فيقول : السلام عليكم يا أهل الصفة فيقولون: وعليك السلام يا رسول الله. فيقول: كيف أصبحتم؟ فيقولون: بخير يا رسول الله [4] .

وبإسناد عن نعيم بن المجمر عن أبيه عن أبي ذر قال: كنت من أهل الصفة، وكنا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله ﷺ فيأمر كل رجل فينصرف، فيبقى من بقى من أهل الصفة أو أقل فيؤثرنا النبي ﷺ بعشائه فنتعشى.

---

(1) ابن الجوزي "تلبيس إبليس" ص 161
(2) ابن الجوزي "تلبيس إبليس" ص 162
(3) المصدر السابق ص 162
(4) المصدر السابق ص 162

فإذا فرغنا قال رسول الله ﷺ : "ناموا في المسجد" وذكر العلماء أن هـؤلاء القوم إنما قعدوا في المسجد ضرورة، وإنما أكلوا من الصدقة ضرورة، فلما فتـح الله على المسلمين، استغنوا عن تلك الحال، وخرجوا [1] .

وإذا كان ابن الجوزي يذكر أن قوماً يذهبون إلى أن التصوف منسـوب إلى أهل الصفة لأن أهل الصفة على صفة "صوفة" في الانقطاع، وملازمة الفقر، فإن السهروردي يقول: وقيل: سموا صوفية نسبة إلى الصفة التي كـانت لفقـراء المهاجرين، على عهد رسول الله ﷺ الذين قال الله تعالى فيهم: (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ) [2] .

وهذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي، فإنه صحيح من حيث المعنى، لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك، لكونهم مجتمعـين، متـآلفين، متصاحبين لله وفي الله، كأصحاب الصفة. وكانوا نحواً من أربعمائة رجل لم تكـن لهم مساكن بالمدينة، ولا عشائر جمعوا أنفسهم في المسجد، كاجتماع الصوفيـة قديما وحديثا في الزوايا والربط وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضـرع، ولا إلى تجارة. كانوا يحتطبون ويرضخون النوى بالنهار وبالليل يشتغلون بالعبـادة، وتعلم القرآن وتلاوته، وكان رسول الله ﷺ يواسيهم، ويحـث النـاس علـى مواساتهم، ويجلس معهم، ويأكل معهم وفيهم نزل قول الله تعالى: (وَلَا تَطْـرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) [3] ونزل في ابن أم مكتـوم قوله تعالى: (عَبَسَ وَتَوَلَّى ۞ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى) [4] وكان من أهل الصفة، وكـان رسول الله ﷺ إذا صافحهم لا ينزع يده من أيديهم. وكان يفرقهم على أهـل الجدة، والسعة يبعث مع واحد ثلاثة، ومع آخر أربعة، وكان سعد بـن معـاذ يحمل إلى بيته منهم ثمانين يطعمهم. وقال أبو هريرة ﷺ: "لقد رأيت سبعين مـن

(1) ابن الجوزي "تلبيس إبليس" ص 163
(2) سورة البقرة : الآية رقم 273
(3) سورة الأنعام الآية رقم 52
(4) سورة عبس: الآيتان رقم 1-2

أهل الصفة، يصلون في ثوب واحد، منهم من لا يبلغ ركبتيه فإذا ركع أحدهـــم قبض بيديه، مخافة أن تبدو عورته" [1] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية " أما الصفة التي ينسب إليها أهل الصفة مـــن أصحاب النبيﷺ فكانت في مؤخر مسجد النبيﷺ في شمال المسجد بالمدينـــة المنورة كان يأوي إليها من فقراء المسلمين، من ليس له أهل ولا مكان يــــأوي إليه. ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الأغنياء والفقراء والأهلين والعزاب، فكان من لم يتيسر له مكان يأوي إليه يذهب إلى تلك الصفة التي في المسجد. ولم يكـن جميع أهل الصفة يجتمعون في وقت واحد، بل منهم من يتأهل أو ينتقل إلى مكان آخر، يتيسر له. ويجيء ناس بعد ناس وكانوا تارة يكثرون، وتارة يقلون. فتــارة يكونون عشرة أو أقل، وتارة يكونون عشرين وثلاثين وأكثر، وتارة يكونـــون ستين وسبعين. وأما جملة من أوى إلى الصفة، من الصحابة مع تفرقهم فقد قيـــل كانوا نحو أربعمائة وقد قيل كانوا أكثر من ذلك" [2] .

وكان فقراء المسلمين من أهل الصفة وغـــيرهم يكتســـبون عنـــد إمكـــان الاكتساب الذي لا يصدهم عما هو أوجب أو أحب إلى الله من الكسب وأمـــا إذا أحصروا في سبيل الله عن الكسب، فكانوا يقدمون ما هـــو أقـــرب إلى الله ورسوله [3] .

فالتصوف منسوب إلى أهل الصفة من أصحاب رســـول اللهﷺ لمشـــابهتهم إياهم في الانقطاع لله تعالى، والتجرد له، والاكتفاء بالقليل وغير ذلـــك مـــن أوصاف أهل الصفة التي تنطبق على الصوفية في كثير من الأمـــور[4] ، فـــأهل الصفة هم الرعيل الأول من رجال التصوف. فقد كـــانت حيـــاتهم التعبديـــة الخالصة، المثل الأعلى الذي تمناه رجـــال التصـــوف في العصـــور الإســـلامية المتتابعة[5] .

---

(1) أنظر السهروردي "عوارف المعارف" ص 62-63

(2) ابن تيمية "مجموعة الرسائل والمسائل" ج1 ص 26-30 بتصرف

(3) المصدر السابق ص 36

(4) راجع الدكتور سامي عفيفي حجازي "العلاقة بين التصوف والأخلاق" ص5

(5)راجع الدكتور سامي عفيفي حجازي "العلاقة بين التصوف والأخلاق" ص5

ويبدو أن هذه المحاولة قصد منها وصل التصوف بعصر النبيﷺ وبيانه أن رسول اللهﷺ قد أقر نهجهم[1] ويميل إلى هذا المعنى بعض الصوفية، ويلتمس المخرج من المأزق اللغوي الذي يتضمن أن النسبة إلى الصفة لا تجيء على الصوفي بل على الصفي[2] فيقول: "ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء، من لفظ الصوفية، وزيادتها في الصفية، والصفية إنما كانت بين تداول الألسن[3]. وإن كان هذا الالتماس لا يقوي النسبة إلى درجة الرضا والقبول لأن مقاييس اللغة لا تعين عليه[4]. ويذهب البعض إلى القول، بأن الصوفية سموا صوفية، لأنهم في الصف الأول، بين يدي الله عز وجل، بارتفاع هممهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه[5]. أو لأنهم كانوا أسرع الناس إلى الصف الأول، في المساجد عند الصلاة[6]. ويذكر العلماء أن هذا الاشتقاق بعيد. حيث أن قواعد اللغة لا تساعده، فبالنسبة إلى الصف صفي ـ بفتح الصاد، وتشديد الفاء مع فتحها ـ ويرى بعض الباحثين: أن كلمة "صوفي" ترجع في نسبتها إلى "سوفيا" التي هي الحكمة عند اليونان. يقول البيروني المتوفى سنة440 هـ : "إن من اليونانيين من كان يرى الوجود الحقيقي للعلة الأولى فقط لاستغنائها بذاتها، وحاجة غيرها إليها وأن ما هو مفتقر في الوجود إلى غيره، فوجوده كالخيال غير حق. والحق هو الواحد الأول فقط وهذا رأي الرواقية وهم الحكماء. فإن "سوف" باليونانية" الحكمة وبها سمي الفيلسوف محبا للحكمة. ولما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سموا باسمهم[7].

والباحث في أمر هذه الرؤية التي قال بها البيروني، ورددها غيره يجد أنها ضرب من الأغراب. وذلك أن كلمة "سوفيا " اليونانية معناها الحكمة. ومنها

(1) الدكتور إبراهيم السيوفي "نشأة التصوف الإسلامي" ص9 ط دار المعارف ـ مصر
(2) أنظر: الشيخ مصطفى عبد الرزاق "التصوف" ص60
(3) الكلاباذي التعرف لمذهب أهل التصوف ص34 ط مكتبة الكليات الأزهرية
(4) الدكتور سامي عفيفي حجازي "العلاقة بين التصوف والأخلاق" ص7
(5) السهروردي "عوارف المعارف" ص 62
(6) مصطفى عبد الرزاق "التصوف" ص 61
(7) البيروني "تحقيق ما للهند من مقولة" ص 24 ط الهند 1377 هـ

فيلسوف أي محب الحكمة. وكانت الفلسفة عند اليونانية القدماء تهتم بـالعلوم الطبيعية، وكان كثير من فلاسفتهم أطباء. وقد ترجمها العرب، فسموا الطب الحكمة. وكلمة حكيم لا تزل تؤدي معنى كلمة طبيب. والفلسفة نفسها سماها العرب الحكمة. وقالوا تاريخ الحكماء، فهم عرفوا من "سوفيا" الفلسفة والطب. أما الحكمة الروحانية فمن البعيد أن يكونوا محوها لأنهم كانوا يرون أن اليونان من عبدة الأوثان على أنه ما الذي يمنع من أن تكون "سوفيا" بمعنى الحكمة الروحانية جاءت من كلمة "صوف" وهي قديمة في العربية؟ إن التصوف قديم جدا عند العرب ولبس الصوف كان علامة التقشف فليس من المستبعد أن ترحل كلمة صوف إلى معابد اليونان[1] .

ويقول الدكتور زكي مبارك: ولا يفوتنا أن نعيد أن العرب كانوا مولعين بحفظ ما يدخل لغتهم من الألفاظ الأجنبية. ولو كان التصوف من "سوفيا" لنصوا عليه في كثير من المؤلفات. فلم يبق إلا أن يكون ورودها في كلام البيروني بابا في الأغراب[2] .

ورأي البيروني هذا على طرافته لا يستقيم لسبب بسيط وهو أن التسمية بالصوفي كانت موجودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى اللغة العربية.

فالبيروني يقول في صراحة: "ولما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سموا باسمهم" ورأي البيروني ــ إذن لا يستقيم إلا على أن هذا اللفظ نشأ في الإسلام بعد أن عرفت الكلمة اليونانية، وعرف معناها، وتداولتها الألسنة، ولاكتها الأفواه، وألفت معناها العقول، أي حوالي منتصف القرن الثالث الهجري، على أقل تقدير، مع أن الكلمة عرفت قبل ذلك بكثير[3] .

والباحث في الموضوع يجد أن المستشرق "نولدكن" رد هذا الرأي الذي يذهب إلى أن كلمة "التصوف" تعود إلى سوفيا اليونانية. حيث ذكر "أن السين

(1) الدكتور زكي مبارك "التصوف الإسلامي" ج1 ص 54

(2) المصدر السابق ج 1 ص55

(3) الدكتور عبد الحليم محمود "المنقذ من الضلال" ص 154 ط دار الكتاب اللبناني 1979م

اليونانية تكتب باطراد في العربية سينا لا صادا، وانه ليس في اللغة الآرامية كلمة متوسطة للانتقال من "سوفوس" إلى صوفي العربية"[1] .

وقد ذهب البعض إلى أن التصوف من "الصوفانة" وهي بقلة رعناء قصيرة نسبوا إليها لاجتزائها بنبات الصحراء[2] .

وقال آخرون: التصوف منسوب إلى صوفة القفا، وهي الشعيرات النابتة في مؤخرة الرأس. كأن الصوفي عطف به إلى الحق، وصرفه عن الخلق[3] .

ويرى بعض علماء الصوفية أن مأخذ الكلمة من "الصفاء" نسبة إلى صفاء نفوسهم أو أن الصوفي منسوب لفعل الله به، أي صافاه، فصوفي، فسمي صوفيا[4] . ولكن هذه المقولة لا ترضي الدكتور زكي مبارك فيقول: "وليس هذا الفرض إلا حذلقة من بعض الصوفية، الذين عبر أبو الفتح البستي عن غرورهم حين قال:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا * فيه وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى * صافى فصوفي حتى لقب الصوفي[5]

ويقول الشيخ عبد الواحد يحيى : أما أصل هذه الكلمة "صوفي" فقد اختلف فيه اختلافاً كبيراً، ووضعت فروض متعددة، وليس بعضها أولى من بعض وكلها غير مقبولة. إنها في الحقيقة تسمية "رمزية" .

وإذا أردنا تفسيرها، ينبغي علينا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها وأنه من الرائع أن نلاحظ أن القيمة العددية لحروف "صوفي" تماثل القيمة العددية لحروف "الحكمة الإلهية" فيكون الصوفي الحقيقي ـــ إذن ـــ هو الرجل الذي وصل إلى الحكمة الإلهية. إنها العارف بالله. إذ أن الله لا يعرف إلا به. وتلك هي الدرجة العظمى الكلية، فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة[6] .

---

(1) راجع: ماسينيون ومصطفى عبد الرزاق "التصوف" ص26 دار الكتاب اللبناني 1984م
(2) ابن الجوزي "تلبيس إبليس" ص 163
(3) ابن الجوزي "تلبيس إبليس" ص 163
(4) الدكتور الدماصي "الأدب العربي بين الزهد والتصوف" ص12 ط دار الكتاب العربي
(5) راجع: الدكتور زكي مبارك "التصوف الإسلامي" في الأدب والأخلاق" ج1 ص 54
(6) الدكتور عبد الحليم محمود "الفيلسوف المسلم" ص 102 ط الأنجلو المصرية

ويعقب فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود على رأي الشيخ عبد الواحد يحيى بقوله، لقد انفرد الشيخ عبد الواحد يحيى فيما نعلم بهذا الرأي، وهو رأي لا يمكن أن ينقض بالأدلة المنطقية، ولكنه لا يمكنه أيضاً أن يؤيد بالأدلة المنطقية، يستسيغه قوم دون برهان، وينفر منه آخرون من غير ما حجة[1] .

ويذكر القشيري: أن الأظهر في اسم الصوفية: أنه كاللقب لأن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعينهم إلى قياس لفظ. واستحقاق اشتقاق[2] وعبد الرحمن بن خلدون يرى: رأي الإمام القشيري من أن اسم الصوفية كاللقب.فبعد أن يعرض ويفند الآراء التي قيلت في هذه النسبة يقول" فلم يبق إلا أنه لقب وضع لهذه الطائفة علماً يتميزون به.

ثم تصرفوا في ذلك اللقب بالاشتقاق منه. فقيل: متصوف، وصوفي والطريقة تصوف، والجماعة صوفيون"[3] .

وأنت ترى من كل ما عرضناه، من أقوال، جاءت حول كلمة "تصوف" أن هذه الأقوال تدل دلالة واضحة على اهتمام العلماء بهذه القضايا وتأصيلها، كما تبين أن كلمة تصوف ثار حولها نقاش طويل. ولا مانع عند من يرى ذلك أن تكون كلمة تصوف، نسبة إلى لباس الصوف، والاتصاف بالصفاء، والصف الأول، وأهل الصفة، والحكمة الإلهية، أو نسبة إلى واحد منها، مما له دلالة عربية تتصل بالإسلام.

(1) الدكتور عبد الحليم محمود "المنقذ من الضلال للغزالي" ص 156

(2) الإمام القشيري "الرسالة القشيرية" ج2 ص 55

(3) عبد الرحمن بن خلدون" شفاء السائل لتهذيب المسائل". ص18 ط المغرب 1958م

التصوف الإسلامي باعتباره علماً كسائر العلوم الإسلامية، لابد لــــه مــــن تعريف يميزه عن غيره، ولما كانت مدارس التصوف متعددة فاختلافهم فيه ليــس اختلاف التغاير في المفهوم، ولكنه الاختلاف في الإحاطة بأطراف الحقيقة، فمنهم من يجمع منها طرفاً واحداً، ومنهم من يجمع أكثر من طرف. ومنهم من يشـــير إشارة أو يلوح تلويحاً ومنهم من يرنو إلى الغاية ومنهم من يتحدث عن الوســيلة كل حسب وقته وحاله وحسب المناسبة التي ورد الحديث في شأنها والتركـــيز على ناحية من نواحي التصوف تبعاً لذلك[1] .

فهو راجع إلى منازل أصحاب السلوك في معارج السلوك. فكل واحد منــهم ترجم إحساسه في مقامه. وهو لا يعارض أبداً مقام سواه.

فالحقيقة واحدة، وهي كالبستان الجامع. كل سالك وقف تحت شجرة منــه، فوصفها ولم يقل إنه ليس بالبستان شجرة سواها. ومهما اختلفت التعريفـــات فإنها تلتقي عند رتبة من التزكي والتقوي عن طريق الهجرة إلى الله[2] يقول أبـــو القاسم القشيري "وتكلم الناس في التصوف، وما معناه؟ وفي الصوفي: من هـــو؟ فكل عبر بما وقع له"[3] .

ويتجه الكثير من الناس ـــ في تعريف التصوف ـــ إلى الجانب الخلقي.

وهذا الاتجاه شائع عند الصوفية انفسهم، وعند غـــيرهم مـــن البـــاحثين في التصوف والمؤرخين[4] .

والجانب الخلقي يسيطر على كثير من التعاريف التي جاءت في التصـــوف. يقول أبو بكر الكتاني المتوفي سنة 233 هــ: "التصوف خلق فمن زاد عليــك في الخلق، فقد زاد عليك في الصفاء"[5] .

---

(1) أنظر الدكتور عبد الفتاح بركة "في التصوف والأخلاق" ص56 ط دار القلم بالكويت 1403هـ

(2) الدكتور سامي عفيفي حجازي "مذكرات في التصوف والأخلاق" ص14

(3) القشيري "الرسالة القشيرية" ج2 ص 551 تحقيق الدكتور عبد الحليم، الدكتور ابن الشريف

(4) الدكتور عبد الحليم محمود "مقدمة المنقذ من الضلال للغزالي" ص160 ط دار الكتاب اللبناني

(5) راجع الدكتور عبد الحليم محمود "المنقذ من الضلال" 160

ويقول أبو محمد الجريري المتوفى سنة 311 هـ :"التصوف الدخول في كل خلق سني، والخروج من كل خلق دني"[1] .

ويذكر أبو الحسين النوري:" أن التصوف ليس رسماً ولا علماً ولكنه خلق لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة ولو كان علماً لحصل بالتعليم ولكنه تخلق بأخلاق الله، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق بعلم أو رسم[2] .

فهذه التعريفات ـــ كما ترى ـــ وغيرها كثير تنطق بمعنى الأخلاق، ويتردد فيها معنى الصفاء. فعماد التصوف تصفية القلب من أوضار المادة، وقوامه صلة الإنسان بالخالق سبحانه وتعالى.

ومن هذا المنطلق اتجه كثير من الصوفية في تعريفهم للتصوف إلى ملاحظة الجانب الخلقي إدراكا منهم لأهمية تحقيق ذلك الجانب. والتعريفات التي لا تذكر فيها ألفاظ الأخلاق نصا تئول في نهاية الأمر إلى الناحية الخلقية إن لم تكن بعناصرها كلها، فبالعناصر الغالبة فيها. ومن هذا بيان لوجهة نظر الكثير في اعتبار الأخلاق وجهاً أساسياً من وجوه التصوف، بل لا تتحقق حقيقة التصوف بغير وجوده، لا من الناحية النظرية، ولا من الناحية العملية[3] .

وفي هذا المقام يقول ابن عربي: إن حرص الصوفية بالمجاهدة للوصول إلى مكارم الأخلاق، لأن بها تتطهر النفوس من أدوائها، وتتخلص من أمراضها ولذلك كان التخلص من شكل الأخلاق المذمومة فرضاً عند الصوفية، لأن الأخلاق المذمومة شكلا كالنجاسة التي تحول بين النفوس وصفائها[4] .

وقد أقر للتصوف بهذه الصفة، واحد من أكبر مفكري السلف، وهو الإمام ابن قيم الجوزية، فأنت تراه يقول : "واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق"[5] .

---

(1) القشيري "الرسالة القشيرية" ج2 ص 551

(2) راجع الدكتور عبد الحليم محمود "مقدمة المنقذ من الضلال" ص 160

(3) أنظر الدكتور عبد الفتاح بركة "في التصوف الإسلامي" ص59 وراجع الدكتور سامي عفيفي حجازي "مذكرات في التصوف الإسلامي" ص 20-21

(4) ابن عربي "الفتوحات المكية" الجزء الأول ص 378

(5) ابن القيم الجوزية "مدارج السالكين" ج2 ص 307

وأيضاً يقول أبو حفص الحداد :"التصوف كله آداب، لكـــل وقـــت أدب، وبكل حالة أدب، ولكل مقام أدب. فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب، فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجـــو القبول"[1] ، وحسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب البـــاطن لأن النـــبي ﷺ قال:"لو خشع قلبه لخشعت جوارحه"[2] ويقول الهجويري" فـــاعلم أن زينـــة وحلية جميع الأمور الدينية والدنيوية متعلقة بالأدب. ولكل مقام من مقامـــات أصناف الخلق أدب، والكافر والمسلم والموحد والملحـــد والســـني والمبتـــدع، متفقون على أن حسن الأدب في المعاملات طيب، ولا يثبت أي رسم في العـــالم بدون استعمال الأدب. والأدب في الناس: حفظ المروءة، وفي الديـــن: حفـــظ السنة وفي المحبة: حفظ الحرمة، وهذه الثلاثة مرتبطة بعضها بالبعض لأن كل من ليست له مروءة لا يكون متابعاً للسنة، وكل من لا يحفـــظ الســـنة لا يرعـــى الحرمة[3] .

وحفظ الأدب في المعاملة يحصل من تعظيم المطلوب في القلب، وتعظيم الحـــق وشعائره في التقوى، ومن يدنس تعظيم شواهد الحق بلا حرمة لا يكن لـــــه أي نصيب في طريق التصوف، ولا يمنع السكر، والغلبة الطالب من حفـــظ الآداب بأي حال. لأن الأدب يكون لهم عادة، والعادة تكون قرين الطبيعة، وســـقوط الطبائع عن الحيوان في أي حال محال ما دامت الحياة قائمـــة. فطالمـــا كـــانت أشخاصهم قائمة فإنهم في كل الأحوال تجري عليـــهم آداب المتابعـــة أحيانـــا بالتكلف، وأحيانا بدون تكلف، فحين يكون حالهم الصحـــو فـــإنهم يحفظـــون الآداب بالتكلف وعندما يكون حالهم السكر فإن الحق تعـــالى يحفـــظ الأدب عليهم. وتارك الأدب لا يكون بأية صفة وليا لأن المودة عند الآداب، وحســـن الآداب صفة الأحباب[4] .

---

(1) السهروردي "عوارف المعارف" ج1 ص 203
(2) المصدر السابق ج1 ص 203
(3) الهجويري "كشف المحجوب" ج2 ص 580 ط دار النهضة العربية بيروت
(4) الهجويري "كشف المحجوب" ج2 ص 581 ط دار النهضة العربية بيروت

فالتصوف آداب وأخلاق في جميع الأوقات، وفي سائر الأحوال والمقامات. فمن لم يتحقق بآدابه وأخلاقه باء بالخسران[1] .

يقول الجنيد "الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح"[2] .

ويقول أبو تراب النخشي "الصوفي لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء"[3].

فالتصوف باعتباره آدابا تراعى في كل لحظة وطرفة، وحركة وسكنة تنعكس على نفس صاحبها، فتطبعها بطابعها الأخلاقي العام بحيث يصبح صفاء في نفسه، وعامل صفاء فيمن يحيط به. إنه رحب الصدر، يسع الجميع برحابة صدره على أي أخلاق كانوا من البر أو الفجور. وهو معطاء من ذات نفسه. فهو لا يمنع بره وخيره ونوره من حوله، يشع هدى وصلاحاً، وهو لا يبالي من يصيب بخيره من الناس أبراراً كانوا أم فجاراً، لأن بره يطفى ويغطي فيعمل في تحويل الناس عن غيهم وفجورهم، ومن لم يستجب منهم فليس ذلك إليه وإنما هو إليهم[4].وهذا متفق مع قول عائشة رضي الله عنها حيث قيل لها: أخبرينا عن خلق النبيﷺ ؟ فقالت: إقرأ من القرآن قول الله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)[5] .

ومن هنا كان المتصوف لا يركن إلى حسن الخلق فحسب، إنه لا يقنع إلا بما هو أحسن[6] .

ولعل كل هذه الأمور توضح للباحثين والدارسين، مدى الجهد في السلوك للتخلق بالأخلاق الطيبة.وقد سئل محمد بن علي القصاب أستاذ الجنيد عن التصوف ما هو ؟ فقال : "أخلاق كريمة، ظهرت في زمان كريم، من رجل كريم،

---

(1) الدكتور محمد مصطفى "قضايا هامة في التصوف الإسلامي" ص14
(2) السهروردي "عوارف المعارف" ص 41
(3) القشيري "الرسالة القشيرية" ج2 ص 555
(4) الدكتور عبد الفتاح بركة "في التصوف والأخلاق" ص60
(5) سورة الأعراف الآية رقم 199
(6) الدكتور سامي عفيفي حجازي "مذكرات في التصوف الإسلامي" ص19

مع قوم كرام"[1] أي أن التصوف من أهم أسسه العامة: التحلي بالأخلاق الفاضلة، التي حث عليها الإسلام[2]، وأخيراً فالتصوف عبارة عن أخلاق، والأخلاق عنصر لابد أن يشترك مع كافة العناصر الصوفية حتى يمكن أن تتكون منها حقيقة التصوف. فإذا خلا وقت من أوقات الصوفي، من هذا العنصر الأخلاقي كان ذلك ضعفاً في سلوكه، وخروجاً من مقتضى الطريق الصوفي الذي يلزمه. وهذه الأخلاق ليست عملاً ظاهراً فحسب تتزين به الجوارح، وتتصور فيه الأعمال، ولكنه مسألة قلبية تظهر آثارها على الجوارح والأعمال. وهذا سبب صعوبتها ومشقتها والداعي لاستمرار اليقظة والجهد في معالجتها[3].

ويذكر العلماء: أن الاتجاه الأخلاقي في تعريف التصوف، شائع في الشرق وفي الغرب، وهو أيضاً شائع في الزمن القديم، وفي الزمن الحديث. ومع ذلك فإنه لا يعبر عن التصوف تعبيراً دقيقاً، على أن هؤلاء الذين ذكروا التعاريف الأخلاقية للتصوف، ذكروا هم أنفسهم تعاريف أخرى. وذلك — على الأقل — يدل دلالة لا لبس فيها، على أنهم لم يروا كفاية الجانب الأخلاقي في تحديد التصوف وتعريفه.

على أنه من الطبيعي أن تكون الأخلاق الكريمة، أساسا من أسس التصوف، وأن تكون الأخلاق في أسمى صورة من صورها ثمرة للتصوف. ومن الطبيعي أيضاً أن تكون الأخلاق الكريمة شعار الصوفي فيما بين الأساس والثمرة، فالأخلاق إذن ملازمة للتصوف والصوفي، ملازمة تامة لا تتخلى عنه، ولا يتخلى عنها، ولكنه ليس معنى ذلك أنها هي التصوف[4]. والباحث في التصوف ومعانيه يجد أن هناك اتجاه أكثر شيوعاً من تعريف التصوف بالأخلاق. وهو تعريف التصوف بالزهد. وحينما يسمع كثير من الناس كلمة التصوف يفهم منها معنى "الزهد" ولا يفهم من كلمة "صوفي" إلا الزاهد في الدنيا. ويعد

---

(1) الطوسي "اللمع" ص 45

(2) الدكتور سامي حجازي مذكرات في التصوف الإسلامي ص20

(3) الدكتور عبد الفتاح بركة "في التصوف والأخلاق" ص63

(4) الدكتور عبد الحليم محمود "مقدمة المنقذ من الضلال" ص 161-162

الصوفي التعلق بالدنيا رأس كل خطيئة، وترك الدنيا ينبوعاً لكل خير. والزهـــاد ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: المبتدئون وهم أولئك الزهاد الذين قصرت يدهم عن الدنيـــا وخلا قلبهم من طمع الدنيا مثل أيديهم. سئل الجنيد: ما الزهد؟ فقال: خلو اليد من ملك الدنيا، وخلو القلب من الطمع.

الطبقة الثانية: وهم المتحققون في الزهد الذين هم مصداق قول رويم بن أحمد حيث يقول: "الزهد هو ترك حظوظ النفس من كل ما في الدنيا" ذلـــك لأن في الزهد لذة نفسية. بمعنى أن الزهد يسبب راحة الخاطر، واستراحة الضمير كمـــا يجلب المدح، وإعجاب الناس بالنسبة للزاهد، ويجعله عزيزاً محترماً في نظرهـــم فالزهد الواقعي بحسب ما يراه رويم يتحقق عندما يترك القلب كل لذة.

الطبقة الثالثة: طبقة الزهاد الخواص الذين رموا كل شيء وراءهم ظـــهريا. قال ذو النون المصري: الزهاد ملوك الآخرة والعرفاء هم ملوك الزهاد[1] .

وقال أيضاً آية حب الله هي أن يترك العبد كل ما يشغله عنه تعالى حتى يبقى هو شغل الله فقط.

وقال سفيان الثوري: الزاهد هو الذي يحقق الزهد يفعله في الدنيا، والمـــتزهد من كان زهده بلسانه.

وقال أيضاً: ليس الزهد في الدنيا ارتداء الخرقة، وأكل خبز الشعير ولكنـــه عدم تعلق القلب بالدنيا وتقصير الأمل[2].

وما من شك في أن الصوفي لا يتعلق قلبه بالدنيا، ولو كـــان عنـــده الآلاف والملايين. بيد أن الزهد في الدنيا شيء، والتصوف شيء آخر، ولا يلـــزم عـــن كون الصوفي زاهداً أن يكون التصوف هو الزهد[3] .

ولخلط الناس بين الزاهد والعابد، والصوفي، حاول ابن سينا أن يفرق بينـــهم وبين أهداف كل منهم، يقول في كتابة: "الإشارات".

---

(1) الدكتور قاسم غني "تاريخ التصوف الإسلامي" ص 381 ، 382 ط مكتبة النهضة المصرية

(2) الدكتور قاسم غني "تاريخ التصوف في الإسلام" ص 382

(3) الدكتور عبد الحليم محمود "مقدمة المنقذ من الضلال" ص 162

1) المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم"الزاهد".

2) المواظب على فعل العبادات، من القيام والصيام ونحوهما يخص باسم "العابد"

3) المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت، مستديماً لشروق نور الحق في سره يخص باسم "العارف"

والعارف عند ابن سينا هو الصوفي،ويتحدث ابن سينا ـــ كما يذكر غيره ـــ أن الزاهد قد يكون عابداً، والعابد قد يكون زاهداً، فيمتزج الزهد والعبادة في شخص واحد، ولا يكون بعبادته وزهده معاً، صوفيا، ولكن الصوفي لا محالة "زاهد عابد"[1] .

وهناك تعريفات كثيرة جاءت عن علماء الصوفية، يحسن أن نذكر بعضاً منها.

قال أبو سعيد الخراز المتوفى سنة 286 هـ الصوفي"من صفى ربه قلبه فامتلأ قلبه نوراً، ومن دخل في عين اللذة بذكر الله".

وقال الجنيد البغدادي المتوفى سنة 297 هـ : "التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به".

وقال أبو بكر الكتاني المتوفى سنة 322 هـ : "التصوف صفاء ومشاهدة" وقال جعفر الخلدي المتوفى سنة 348 هـ : "التصوف طرح النفس في العبودية والخروج من البشرية، والنظر إلى الحق بالكلية"[2] .

وهناك تعريفات أخرى كثيرة يجدها الباحث منثورة في كتب التصوف. وهي على كثرتها تعبر في أغلب الأحايين عن زاوية من زوايا التصوف، تتصل بالوسيلة، أو تتصل بالغاية[3] .

والباحث في تعريفات التصوف الإسلامي يجد أنها تقوم على ما يلي:

---

(1) الدكتور عبد الحليم محمود "مقدمة المنقذ من الضلال" ص 163-162

(2) أنظر المصدر السابق ص 164

(3) المصدر السابق ص 166

1) تعريفات تتحدث عن البداية، ويقصد بها ما تحس النفس بفطرتها إلى أن هناك حقيقة تتوق إليها الروح، وتطلب السير إليها غير أن هذا لا يتأتى إلا من أوتي حظاً كبيراً من العزم وصدق التوبة.

2) وهناك تعريفات تتحدث عن المجاهدات، ويقصد بها الجانب العملي في المجاهدة المرتبطة بالشريعة.

3) وهناك تعريفات تتحدث عن المذاقات، ويقصد بها ثمرة المجاهدات المرجوة[1]. إلا أن جميع التعريفات التي تتصل بالأخلاق والمقامات والأحوال تعتبر جماع التربية الخلقية الصوفية. وذلك لأن إصلاح الباطن عند الصوفية يتوقف على ثلاثة أمور:

الأمر الأول: معرفة النفس ونوازعها ورغباتها.

والأمر الثاني: تطهير القلب، وتصفية الروح من الرذائل، وذلك طريق المجاهدات.

والأمر الثالث: التحلي بالفضائل والمكارم الخلقية، ومن شأن هذه الأخلاق والمقامات أن تجعل من الصوفي إنسانا مشغول القلب بالله، مطيلا للجلوس بين يديه، متنعما بعز الطاعة له، شاعرا بالثقة والأمن واليقين في رحابه[2]، والأخلاق عند الصوفية تصفية النفس وتجملها بكل المكارم والفضائل الخلقية، وتزكيتها، بحيث تصبح النفس في جميع تصرفاتها وفقا لمراد الله تعالى[3] .

---

(1) أنظر الدكتور سامي عفيفي حجازي "مذكرات في التصوف الإسلامي" ص 26-28

(2) أنظر الدكتور سامي عفيفي حجازي :مذكرات في التصوف الإسلامي" ص28

(3) المصدر السابق ص 29-30

التصوف والأخلاق

لما كانت العلاقة بين التصوف والأخلاق علاقـــة وثيقـــة، وأن تعريفـــات التصوف تتصل بالأخلاق كان لابد أن نتعرف على الأخلاق الإسلامية لنـــدرك في وضوح إيجابية التصوف كأخلاق عملية.

والأخلاق: جمع خلق ـــ بضم الخاء واللام ـــ كعنق، وأعنـــاق. أو بضـــم فسكون كصلب وأصلاب، ولا تكسر على غير ذلك، بمعنى أنها ليســـت مـــن الكلمات التي تكسر على صور مختلفة ككلمة "جمل" مثلا فإنها تجمع جمع تكسير على: إجمال، وجمل وجمالة وجمالات وأجمال وجمائل، وجامل[1] .

والخلق ـــ بضم اللام ـــ والخلق ـــ بسكون اللام في لسان العرب:

السجية يقال: خالق المؤمن وخالق الفاجر، وفي الحديث: "ليـــس شـــيء في الميزان أثقل من حسن الخلق" والخلق ـــ بضم اللام وسكونها: هو الدين والطبـــع والسجية. وحقيقته: أنه لصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه، وأوصافها ومعانيها المختصة بها، بمترلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولهـــا أوصـــاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكـــثر ممـــا يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة[2] .

ومن معجم ألفاظ القرآن الكريم أن الخلق ـــ بضم الخاء واللام، الســـجية والطبع وما يجري عليه المرء من عادة لازمة[3] .

وقد تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق في غير موضوع، مثل قوله ﷺ: "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا".

وكذلك جاء في ذم سوء الخلق أيضاً أحاديث كثيرة.. وفي حديث عائشـــة رضي الله عنها: "كان خلقه القرآن"[4] أي كان متمسكا به وبآدابه وأوامـــره

---

(1) الدكتور منصور رجب "تأملات في فلسفة الأخلاق" ص 12 ط 3 سنة 1961 القاهرة

(2) ابن منظور "لسان العرب" المجلد الثاني ص 1245 ط، دار المعارف بمصر

(3) مجمع اللغة العربية "معجم ألفاظ القرآن الكريم" ج1 ص 361ط لجنة التراث مصر.

(4) رواه أحمد في مسنده والترمذي في صحيحه

ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف، وفي حديث عمر "من تخلق للناس بما يعلم أنه ليس من نفسه شأنه الله" أي تكلف أن يظهر من خلقه خلاف ما ينطوي عليه مثل: تصنع وتجمل إذا أظهر الصنيع والجميل وتخلق بخلق كذا: استعمله من غير أن يكون مخلقا في فطرته، وقوله: تخلق مثل تجمل أي أظهر جمالا وتصنع وتحسن إنما تأويله الإظهار، وفلان يتخلق بغير خلقه أي يتكلفه، قال سالم بن وابصة:

يا أيها المتحلي غير شيمته * إن التخلق يأتي دونه الخلق

وإذا كان ابن منظور قد ذكر أن الخلق ــ بضم اللام وسكونها ــ هو الدين والطبع والسجية، فهل هناك فرق بين مدلول الطبع، ومدلول السجية؟ أم هما من الألفاظ المترادفة؟

يرى كثير من علماء البحث والدراسة: أن هناك فرقاً بين المدلولين وهو أن الطبع يطلق على الخلق الفطري، فالطبع ــ بسكون الباء ــ هو الجبلة التي خلق الإنسان عليها .. والسجية: تطلق على الخلق الفطري والمكتسب إذا أصبح عادة، ومما يؤكد ذلك قول حسان بن ثابت:

سجية تلك فيهم غير محدثة * أن الخلائق ما علم شرها البدع

فالسجية قد تكون صحيحة، وقد تكون غير صحيحة.

ويقتضينا البحث اللغوي أن نعرف معنى كلمة "خلق" بفتح الخاء وسكون اللام ــ لنصل إلى الارتباط القائم بين الخلق ــ بفتح الخاء وسكون اللام وبين الخلق ــ بضم الخاء واللام.

فالخلق ــ بفتح الخاء وسكون اللام: التقدير[1] يقال: خلق الأديم يخلقه خلقا: قدره لما يريد قبل القطع، وقاسه ليقطع منه مراده، أو قربة، أو خلقا. قال زهير في قصيدة يمدح هرم بن سنان:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ * ـض القوم يتخلق ثم لا يفري[2]

---

(1) الفيروز أبادي "بصائر ذوي التمييز" ج2 ص 566 ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

(2) زهير بن أبي سلمى "الديوان شرح ثعلب" ص94 الطبعة الأولى

يقول: أنت إذا قدرت أمراً قطعته، وأمضيته، وغيرك يقدر ما لا يقطعه لأنــه ليس بماضي العزم، وأنت مضاء على ما عزمت عليه[1] .

ويقال الخلق: التقدير المستقيم في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء قال تعالى "خَلْقِ السَّمَاوَات وَالْأَرْضِ" أي أبدعها لدلالة قوله: "بَدِيــعُ السَّــمَاوَات وَالْأَرْضِ" ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء قال تعالى: "خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْـــسٍ وَاحِدَةٍ" وليس الخلق بمعنى الإبداع إلا لله تعالى، ولهذا قال تعالى في الفصل بينــه وبين غيره، "أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ" وأما الذي يكون بالاستحالة فقد جعلــه الله لغيره، في بعض الأحوال، كعيسى عليه السلام، حيث قال:" وَإِذْ تَخْلُقُ مِــنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ" والخلق لا يستعمل في جميع الناس إلا على وجهين:

أحدهما: في معنى التقدير كما ذكرنا من قول زهير.

وثانيهما: في الكذب نحو قوله تعالى: " وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا".

وكل موضع استعمل فيه الخلق في وصف الكلام، فالمراد به الكذب ومــن هذا الوجه امتنع كثير من الناس من إطلاق لفظ الخلق على القرآن وعلى هــذا قوله "إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ" وقوله "مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَــذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ".

والخلق في معنى المخلوق، والخلق والخلق في الأصل واحد[2] .

فالخلق بالضم ــ ذو علاقة وثيقة بمعنى الخلق بالفتح وذلك لأنــه في أصلــه مصاحب لأصل الخلقة يوجد مع المخلوق بوجوده، ثم يأخذ في النمو والتطــور وفقاً لنمو صاحبه وتطوره، فكل استقامة في سلوك المخلــوق وفــق الســنن الصحيحة، تصاحبها استقامة الخلق نفسه، وكل انحراف أو فســاد في ذلــك السلوك مؤد إلى مثله في الخلق والتصوير.. وما أدق إشارة المتنبي إلى ذلك في قوله:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه * وصدق ما يعتاده من توهم

---

(1) ابن منظور "لسان العرب" ج2 ص 1245

(2) الفيروز آبادي "بصائر ذوي التمييز" ج2 ص 567

كذلك نجد الصلة بين الخلق والخلق من حيث التقدير الغائي، فوجود الخلق في الكائن البشري يستهدف أصلاً تزويد بالناظم الذي يعينه على معرفة الخير والأحسن وما يقابلهما[1] .

وإذا كان الخلق ـــ بضم الخاء واللام ـــ والخلق بفتح الخاء وسكون اللام أصلهما واحد، فقد خص الخلق ـــ بفتح الخاء وسكون اللام ـــ بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخلق ـــ بضم الخاء واللام بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة[2] .

قال الله تعالى لنبيهﷺ "وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم" قال ابن عباس رضي الله عنهما: لعلى دين عظيم، لا دين أحب إلي، ولا أرضى عندي منه وهو دين الإسلام، وفي الصحيحين، إن هشام بن حكيم سأل عائشة عن خلق رسول اللهﷺ فقالت "كان خلقه القرآن"[3] فالأخلاق بمعنى الدين، عبارة عن نظام في العمل، غايته تحقيق الحياة الخيرة الطيبة ونمط من السلوك مع النفس والغير، من حيث ما يجب أن يكون عليه هذا السلوك كما أنها ليست جزءاً من الدين فحسب، بل جوهره وروحه، لأن الدين في مضمونه عبارة عن الواجبات التي يلتزم بها الإنسان نحو الله، ونحو نفسه، وغيره من المخلوقات.والأخلاق عند القدماء: ملكة تصدر بها الأفعال عن النفس من غير تقدم رؤية وفكر، وتكلف .. فغير الراسخ من صفات النفس لا يكون خلقا، كغضب الحليم، وكذلك الراسخ الذي تصدر عنه الأفعال بعسر وتأمل، كالبخيل إذا حاول الكرم.. وقد يطلق لفظ الأخلاق على جميع الأفعال الصادرة عن النفس محمودة كانت أو مذمومة، فنقول: فلان كريم الأخلاق، أو سيئ الأخلاق، وإذا أطلق على الأفعال المحمودة فقط دل على الأدب، لأن الأدب لا يطلق إلا على المحمود من الخصال[4] .

(1) الشيخ محمد المجذوب "الأخلاق بين الفلسفة والإسلام" ص 321 في ندوة المحاضرات ـــ مكة المكرمة
(2) الفيروز أبادي "بصائر ذوي التمييز" ج2 ص 567
(3) رواه مسلم وابن داود وأحمد والسيوطي
(4) جميل صليبا "المعجم الفلسفي" ج1 ص 49 ط دار الكتاب اللبناني بمصر

ويرى العلماء المعاصرون أن الأخلاق في أوجز تعريف هي: "قوة ذاتية نحس أثرها في ترغيبنا بشيء، وتنفيرنا من ضده فهي إذا طبيعة مركوزة في فطرة الإنسان وظيفتها إصدار الأحكام على الأعمال والأشياء بالحسن أو القبح والخير أو الشر، والفضيلة أو الرذيلة، وهي من حيث كونها مصدراً واحداً خفيا لهذه الأحكام تسمى "الضمير"، ومن حيث آثارها المتعددة ومظاهرها المتكاثرة تسمى "الأخلاق"[1] .

إن الإنسان كل إنسان، وفي كل عصر من العصور، يعيش حياة اجتماعية. والحياة الاجتماعية تقوم على التعامل والسلوك مع الآخرين. ومثل هذا التعاون أوجب وجود قواعد وأنماط للسلوك ترضى عنها المجتمعات وتقاليدها وأصولها الاعتقادية، أو لا ترضى عنها.

وقد احتاج هذا التعامل إلى التمييز بين الحسن والسيئ، بين الفاسد والصالح، وبين النافع والضار، كما احتاج إلى إصدار الأحكام على تصرفات الإنسان بالخير والشر، بالحسن والسيئ، بالصلاح والفساد.

وموضوع الخير والشر، والحسن والقبح، والسلوك الخطأ والصواب شغل أذهان جميع المفكرين، والفلاسفة والمصلحين، في مختلف أطوار الإنسانية، فقد أراد الإنسان منذ وجد أن يقوم سلوكه ويحكم عليه حكماً خلقياً، وسواء كانت نتيجة التقويم مدحاً أو ثواباً، ذماً أو عقاباً، فإن عملية التقويم تبدو ضرورية لكل فعل بشري مهما كانت حقيقته [2] .

والدين الإسلامي قد فصل الكلام في المسائل الخلقية الرئيسية التي تناولها القدامى والمحدثون في الأصل الخلقي للسلوك الإنساني، والبواعث الخلقية .. والحكم الخلقي .. والغاية من الفصل الخلقي .. ونسبية الأخلاق وإطلاقها[3].

فأصل الشعور الخلقي أو بمعنى آخر، كيف نعرف أن عملا من الأعمال خلقي وآخر غير خلقي .. هناك رأيان:

---

(1) الشيخ محمد المجذوب "الأخلاق بين الفلسفة والإسلام" ص 321

(2) الدكتور عبد الكريم عثمان" معالم الثقافة الإسلامية" ص 283 ط السعودية

(3) الدكتور أحمد فؤاد الأهواني "التربية في الإسلام" ص 100 ط الحلبي

أحدهما يقول: بأن مصدر هذا الشعور غريزة في الإنسان سابقة على كل تجربة تبدأ متكاملة، وترسخها التربية ولكنها ليست نتيجة مباشرة لها. والآخر يرى بأن معرفة الخير والشر تعتمد على التجربة، وتنمو بتقدم الزمان، ورقي الفكر.

والذي ينسجم مع نظرة الإسلام الخلقية، أن هذا الشعور فطري فطره الله عليه. قال تعالى "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا".

وهذا الشعور يحمل الإنسان على حب بعض الصفات وكراهة أخرى.. وهو وإن كان متفاوتا وعلى أقدار متنوعة في مختلف أنواع البشر، إلا أن الشعور العام بقطع النظر عن الأفراد، لا يزال يحكم على بعض السجايا الخلقية بالحسن وعلى بعضها بالقبح في كل زمان[1] .

والباعث الباطني النفسي الذي يحمل على إطاعة ما يمليه الشعور الخلقي والذي يدفع إلى القيام بأنواع من السلوك دون أخرى .. لا شك أن هذا الباعث يتعلق بالغايات والأغراض التي يهدف إليها الإنسان، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يقوم بأعمال اختيارية .

والمفروض أنه يفكر في الغرض من عمله قبل أن يشرع فيه، ثم يفتش عن الوسيلة المناسبة لتحقيق هذا الغرض، وتختلف الأغراض عند الناس باختلاف تكوينهم العقيدي والفكري، كما تختلف حسب أعمالهم وظروفهم. ويتعلق بالباعث معرفة الأهداف أو النتائج الأخيرة التي يحاول الإنسان الوصول إليها بأعماله الخلقية. إن هذه الأهداف تشكل محوراً تدور حوله الأغراض القريبة وتتلون. فإذا كان هدف الإنسان في حياته تحقيق مجده الشخصي دارت أغراضه جميعاً حول هذا الهدف، واصطبغ سلوكه به، فهو لا ينظر إلى الحوادث وبالتالي لا يكيف موقفه إلا بحسبها، كذلك الذي يهدف إلى تحقيق مثل أعلى كإرضاء الله تعالى، وتحقيق الخير العام، فإنه لا ينظر إلى الأمور إلا بهذا المنظار، ومن هنا

(1) الدكتور عبد الكريم عثمان "معالم الثقافة الإسلامية" ص 283

كان إلحاح الإسلام على الأهداف السامية التي تربط سلوك الإنســـان بهـــدف أعلى يتسامى إليه ويعمل جاهداً لتحقيقه.

وبالمقياس الذي نقيس به أعمالنا لنحكم عليها بإصلاح أو الفساد، بالخــير أو الشر، أو بمعنى آخر، القانون الخلقي وماله من قوة ملزمة تحمل الإرادة علـــى العمل بموجبه، قال العقليون: أن هذا القانون في أنفسنا، فالضمير ذاتي ينبع مــن داخل الإنسان، فهو فطري لا مكتســـب، ولا متطــور، وقـــال التطوريـــون والاجتماعيون:

إن هذا القانون يتكون من مصادر خارجية منها المعتقدات الدينية ومنها مـــا تواضع عليه الناس من أحكام، ثم أجبروا عليها بالمعاملـــة، فصـــارت أعرافـــاً وعادات، فالخوف من الله، والخوف من المجتمع هو الذي يشكل القانون الخلقـي الذي نزن به أمورنا.

والإسلام يجعل مقياس كل حكم، وميزان كل سلوك هو القواعد الخلقية التي جاء بها الرسول عليه الصلاة والسلام. فقد أرسله الله، كما بعث كل رســـول، أنزل معه الكتاب، لهداية الإنسان وإرشاده إلى طريق الخير والسعادة[1] .

وقد اختلف الناس وما يزالون مختلفين فيما هو الحسن والسيئ.. وفيمـــا إذا كان بالإمكان أن نطلق أحكاماً عامة في الحسن والقبيح، في الخـــير والشـــر.. وبعبارة أخرى: هل نستطيع أن نقول بخير مطلق أو شر مطلق، يندرج حكمـــها على جميع الأزمات، والظروف، أم أننا أمام أحكام نسبية بمعنى أن ما هو شــر في مكان أو زمان قد يكون خيراً في مكان أو زمان آخرين. والعكس.. لقد وجـــد بين المفكرين القدماء من قال بالقيم العامة المطلقة.. ووجد منهم من قال بعكس ذلك، ولعل أفلاطون من فلاسفة اليونان، من أوائل الذين قالوا بالخير والشـــر المطلقين..

وقد أدلى المفكرون المسلمون بدلوهم في هذا الموضوع واختلفوا فيه، كمـــا اختلف غيرهم، إلا أنهم تميزوا عن الآخرين في الأساس الذي قامت عليه نظرتهم

(1) الدكتور عبد الكريم عثمان "معالم الثقافة الإسلامية" ص 284

له.. فقد جعلوا هذا الأساس متصلا بالعناية الإلهية من خلال صلتـــها بالعــالم وبالمكلفين.

أما في العصر الحديث فقد استمر النقاش حول هذا الموضوع، وأصبح يدرس من خلال نظرية القيم التي يتناول الأخلاقيون من خلالها عامة قيم الأشياء مـــن من خير أو شر، وجمال أو قبح.

والنظرة الإسلامية إلى نسبية الأخلاق وإطلاقها تؤكـــد إطـــلاق الأخـــلاق وعموميتها، كالصدق، والأمانة، والعدالة، والوفاء بالعهد مثلا وكل ذلك ممـــا عدته الإنسانية من الصفات الخلقية الجديرة بالثناء والمـــدح، ولم يـــأت علـــى الإنسانية وقت استحسنت فيه الكذب، والظلم، والخيانـــة، وكذلـــك أمـــر المجتمعات.. فما عرفت الإنسانية مجتمعا يستحق الاحترام إلا المجتمع الذي يتمتع بحسن الإدارة، وجودة النظام والتناصح والتكافل والعدالة، ولا هي نظرت بعين الإعجاب إلى مجتمع خيمت عليه أخـــلاق الفوضـــى والتبـــاغض والتنـــافر، والتحاسد، والتفاضل بين أفراد البشر[1] .

والأخلاق نظرية وعملية، ولم ينص الإسلام على أخلاق نظرية منفصلة يتبعها السلوك العملي، ويستمد قوته من تلك النظريات المقررة. وإنما رســـم للنـــاس قواعد العمل الصالح الذي ينبغي أن يسيروا عليه.. والقرآن زاخر بهذه القواعـــد العملية التي تتناول أغلب أحوال الناس في معاشهم وفي صلاتهم بغـــيرهم مـــن الناس، ومعاملتهم بعضهم بعضاً[2]، والأخلاق من الأمور المعيارية التي تبســـط للناس مثلا علياً، ينبغي اتباعها وتختلف عما يكون عليه الإنسان في الواقع[3] .

والنظام الخلقي في الإسلام ينبثق من تصوره للكون والوجود، ويعتمد هـــذا التصور على أن لهذا الكون إلهاً، وأنه لا إله غيره خلق الكون وأوجده.. وهـــذا الكون يسير بانتظام مذعنا لأمر الله ومشيئته، والإنسان جزء من هذا الكـــون، خلقه الله بطبيعة متميزة لعبادته والانقياد لأمره.ولا معنى لحياته إلا أن تكـــون

(1) أبو الأعلى المودودي "نظام الحياة في الإسلام" ص 827

(2) الدكتور أحمد فؤاد الأهواني " التربية في الإسلام" ص 103

(3) المصدر السابق ص 101

كلها خالصة العبودية لله.. فالغاية البعيدة من مجهودات الإنسان ومساعيه في الدنيا هي ابتغاء وجه الله تعالى ونيل رضاه ، وهذا هو المقياس الذي يقاس به في الإسلام كل عمل من أعمال الإنسان، ويحكم عليه بالخير أو الشر[1] .

وهو في مقابل مقاييس اللذة أو المصلحة، أو السعادة أو غيرها.. وقد أنعم الإسلام على الإنسان بهذا المقياس، وزوده بمرجع دائم لمعرفة الحسن أو القبح الخلقي.. وهذا المرجع ثابت دائم لا يحصر علمنا بالأخلاق على العمل، أو التجارب أو العلوم الإنسانية، حتى تتغير أحكامنا باستمرار وليس هذا المرجع إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ففيهما خطة كاملة لكل شؤون الحياة، وانطباق متسع لأصول الأخلاق على شؤون الحياة المختلفة[2] .

ونظام الأخلاق في الإسلام يقوم على ثلاث خصائص هي:

الأولى: أن الإسلام يجعل ابتغاء وجه الله، ونيل رضاه غاية منشودة في الحياة الإنسانية، ويجعل ذلك مقياسا ساميا للأخلاق، لا يقوم معه في وجه الارتقاء الخلقي شيء يعوقه عن الارتقاء والتقدم، ويهيئ للأخلاق من خشية الله تعالى، قوة تحث الإنسان على القيام من غير أن تكون فيها يد لعامل من العوامل الخارجية.

ثانيا: إنه لا يوجد بهذا التحريض والترغيب أخلاقاً مبتكرة، ولا يحاول حط بعض الأخلاق الإنسانية المعروفة: " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". ولكنه يريد أن يجعل الأخلاق مسيطرة في جميع نواحي الحياة، ومهيمنة عليها.

ثالثا: إنه يطالب الناس، ويلتمس منهم إقامة نظام الحياة ينهض بنيانه على المعروف، ولا يشوبه شيء من المنكر، ويدعوهم إلى أن يقيموا الخيرات في كل زمان ومكان، وأن يشيعوا إقامة هذه الخيرات في العالم وهذه هي مهمة المجتمع الإسلامي، والأمة الإسلامية.

إن القيم الإسلامية تحقق وظائف عدة، ففيما يتعلق بالفرد، تحاول هذه القيم رفعه فوق مرتبته الراهنة، وتعمل على العلو به عن المستوى الحيواني، الذي يقتصر على الماديات من طعام وشراب، إلى المستوى اللائق بكرامة الإنسان

(1) المودودي "نظام الحياة في الإسلام" ص 14

(2) الدكتور عبد الكريم عثمان "معالم الثقافة الإسلامية" ص 288

وتقدمه ورقيه، وفيما يتعلق بالمجتمع فإنها تحقق أعظم عامل للربط بين أفراده والسمو بالجماعة من المرتبة المادية الحيوانية إلى مرتبة الحضارة والمدنية، وتقيم الصلات بين الأفراد والهيئات على أسس نبيلة كريمة تعتمد على الإيثار والتفاني في سبيل خير المجتمع.

الإسلام وحدة متماسكة مترابطة لا تتجزأ، وهو عقيدة وعبادة ومعاملات وحقوق وأخلاق. والتناسق ظاهرة عجيبة في الإسلام في مجموعه كله: عقائده وتشريعاته وأخلاقه.

يقول العقاد: يلمس هذا التناسق من تأمل فيه، وألقى عليه في مجموعه نظرة عامة بين عقائده وعباداته، وبين ما يشرعه من المعاملات والحقوق، ويحمده من الأخلاق والآداب، هناك وحدة تامة أو بنية واحدة يجمعها ما يجمع البنية الحية من تجاوب الوظائف، وتناسق الجوارح والأعضاء[1] .

ويروع الباحث في الإسلام ذلك التناسق بين عقائده وأحكامه، أو بين عقائده وأخلاقه، ولعل هذا التناسق ــ كما يقول العقاد ــ أظهر ما يكون بين الأخلاق المتعددة التي حمدها الدين من المسلم، وهي متفرقات تجمعها وحدة لا تستوعبها إلا وحدتها الإسلامية فهي في جملة وصفها "أخلاق إسلامية وكفى"[2].

---

(1) العقاد "المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد" المجلد الخامس ص 156 ط الكتاب اللبناني

(2) العقاد "المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد" المجلد الخامس ص 156 ط الكتاب اللبناني

فهرس